حركة التاريخ بين النسبي والمطلق
في رسائل النور



حركة التاريخ بين النسبي والمطلق في رسائل النور

أديب إبراهيم الدباغ



مقدمة المؤلف

الرحلة.. و.. الصحبة

في البدء لم أكن أحسب أني سأمضي مع "النورسي" فيما كتب هذا الشوط البعيد، أو سأوغل في شعاب فكره هذا الإيغال اللاهف العميق، فقد توهمتُ- بادئ ذي بدء- أن رحلتي معه لن تطول، وصحبتي له لن تستمر، ولكن الذي حدث هو إن الرحلة التي بدأت قبل أكثر من خمس سنوات لا يبدو أنها على وشك الانتهاء، والصحبة التي استمرت طوال هذه السنين لم يظهر – حتى هذا اليوم – ما يشير إلى أنها قد وصلت نقطة النهاية، فما زلتُ أقف أمام صفحات كثيرة مطوية من فكر الرجل تنتظر مَن يكشف عنها، ويسلط الأضواء عليها، فضلاً عما تحدثه –في النفس – صحبةُ الرجل، وملازمةُ مؤلفاته، من إحساس بالراحة، وشعور بالقوة والحيوية والتفوق إزاء شتى ضروب الأفكار والمعتقدات الأخرى.

والرجل – بعد هذا أو ذاك – موهوب في كسب صداقة مَنْ يقرأه، وامتلاك إعجابه واجتذابه إليه، بما وهبه الله ،سبحانه وتعالى من قوة الروح، ونفاذ الفكر، ورهافة الحس، وصفاء الذوق، وصدق المشاعر، وعمق محبته للإنسان، وعظيم إخلاصه لله، وشدة تعلقه بكتاب الله وسنة

رسول الله **ق**، ولذلك فإن صحبته لا تُمَلُ، وملازمته لا تُسئِمُ، ومعايشته لا تُضجِرُ.

وقد كانت بداية تعرفي على "النورسي " من خلال قراءتي لبعض أعماله المترجمة من التركية، والتي اضطلع بمهمة نقلها إلى العربية الأخ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ، كما وقع في يدي بعض مؤلفاته بالعربية كـ (المثنوي العربي النوري)[1] و (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) و(الخطبة الشامية) فاكتشفت من خلال هذه القراءات أنني وقعت على كنز إيماني نفيس، ليس من العدل حرمان قراء العربية من الوقوف عليه، والتعرف على ما عنده، والإفادة مما لديه، لاسيما والرجل وقَاع على الجديد والطريف والمبتكر من المعاني والأفكار، وقناص بارع لكل سارح وبارح من بوارق الخواطر ولوامع العقول.

و(سهولة العمق) أو (عمق السهولة) ميزة مؤلفات "النورسي".

أما (سهولة العمق)؛ فنعني بها: أنه لا يأخذك إلى عمق أفكاره ما لم يمهد لك السبيل إلى ذلك، وييسر لك طريق الاندفاع إليها، والغوص في طلبها، فلا تحس في غوصك بضغوط الأعماق، ولا تعاني من ضيق التنفس، ثم تنفذ –بعد ذلك- إلى السطح وقد التقطتَ طِلْبتك، وحصلت على بغيتك، وكأنك في مكانك من السطح لم تَرم.

---

[1] () انظر"مختارات من المثنوي العربي النوري" لسعيد النورسي:اختيار وتقديم: "المؤلف". مطبعة الزهراء الحديثة- الموصل 1984.

وأما (عمق السهولة) ؛فنعني به: أنه ما من سهل في فكر "النورسي" إلا وهو من ذلك (السهل الممتنع) الذي تحس ُ وكأن كل أحد قادر على الإتيان بمثله، لكنه في حقيقة الأمر، يستعصي على الفحول من أرباب العقول، لأن التجربة والمعاناة-وهي ذاتية بحتة- هي الأساس فيه، وهي مما لا يتشابه فيها اثنان من البشر.

فالتجربة والمعاناة هي التي ترفُد رسائله بالحرارة، وتفعمها بالحيوية، وتطبعها بالمصداقية، وتشحنها بالواقعية، فقد عايش عصراً مضطرباً مليئاً بالأحداث، وشارك في بعضها، وراقب الأخرى عن كتب، وشاهد المسارات المرسومة للدولة العثمانية وكيف يتمُّ تحويلها إليها تدريجياً. فشارك في (الحرب التركية الروسية) قائداً لفرق الأنصار وأبلى البلاء الحسن، وهزه انهيار الدولة العثمانية، ذات الأمجاد العظيمة، ولاحظ بأسى الانقلاب المريع الذي قاده "مصطفى كمال" مزلزلاً به حياة تركية المسلمة، وأحسَّ بالمؤامرات وهي تحاك في الظلام لإبعاد الأتراك عن دينهم وفصلهم عن قرآنهم، وبكى بمرارة الحرف العربي الذي اختفى ليحل محله الحرف اللاتيني، وأبصر دامغاً حزن "الجمعة المؤمنة" وهي تتوارى وَجِلَة أمام"الأحد" العابث..إلى غير ذلك من أمور أصبح لها قوة القانون وهيمنة الدستور.

وقد شخَّص الرجل مرضَ المسلمين المزمن، ووضع يده على أسباب انحسار حضارة الإسلام أمام الحضارة الغربية، ونادى بضرورة الانكباب على العلوم الحديثة والإفادة منها في بناء (القوة الإسلامية الجديدة) والتي ينبغي لها أن تقبل التحدي وتواجهه بكل ما يتيسر لها من

أسباب القوة، ونبّه إلى أن اللبنة الأولى في صرح هذه القوة يجب أن يكون "الإيمان".

لذا فإن التركيز على "الإيمان" وتجليه حقائقه، وتعميقه في النفوس، هو من مهمات الرسائل التي كتبها وأطلق عليها اسم "رسائل النور".

***

وهذا الكتيب الذي بين يدي القارئ الكريم إنما هو إشارات سريعة لبعض أحداث "التاريخ" وردتْ متفرقة في العديد من "رسائل النور" المترجمة إلى العربية، وقد لاحظتُ أهميتها في تفسير كثير من أحداث التاريخ عموماً والتاريخ الإسلامي بشكل خاص، مما حدا بي أن أضع كل إشارة تحت عنوان مناسب، ثم أجري حولها كلاماً أرجو أن يكون قد أسهم بعض الشيء في إلقاء المزيد من الأضواء عليها.

وأود أن أشير إلى أنني لم أكن لأجرؤ على إتمام هذا العمل المتواضع وإظهاره بهذا الشكل لو لم يحظَ باهتمام الأخ الدكتور عماد الدين خليل الذي اطلع على مسودته وتفضل- مشكوراً- بكتابة مقدمة له.

وختاماً أرجو أن يوفقنا الله سبحانه وتعالى في قابل الأيام للعثور على إشارات تاريخية أخرى في ثنايا"رسائل النور" نعد القراء أن نضيفها إلى هذه "الإشارات"في طبعات الكتاب المقبلة إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل

واضحٌ أننا جميعاً نتفق-مهما اختلفت الرؤى وتباينت المواقف والتصورات والأفكار- على الأهمية البالغة للمسألة التاريخية، أي للعودة إلى نسيج الحبكة التاريخية واستنطاقها لمعرفة أين نقف الآن وما الذي يتحتّم علينا أن نفعله في المستقبل.

ليس ثمة تجربة في العالم، تحترم نفسها، وتتعامل بالحدّ الأدنى من التعقل مع الواقع، إلا ونجد في تاريخها الخاص: الخبرة والخصوصية والمؤشرات التي تمنحها الثقة بالذات، وتهديها سواء السبيل فتقول لها: مرّي من هنا وحاذري أن تمرّي من هناك..

إنه التصادي الفعّال في مسيرة الأمة حيث لا ينفصل الحاضر عن المستقبل أو الماضي إلا بحدود موهومة نتخّيلها –أحياناً- بدرجة لونية أعمق بكثير من درجتها الحقيقية، وحيث يكون نهر الزمن المتدفق ومكوناته، واحداً في الشمال والوسط والجنوب، اللّهم إلا بقدر ما ينضاف إليه عبر رحيله الدائم، ولكنه-مع هذا- يبقى واحداً..

والذين قالوا بضرورة الانفصال عن "التاريخ" من بعض تلامذة المدرسة المادية، رأوا أنفسهم مضطرين إلى الرجوع عن مقولتهم تلك، بدرجة، أو أخرى. لقد أرغمهم التاريخ على قبول حكمه.

من هنا تكتسب هذه الرسالة التي بين يدي القارئ أهميتها، إنّ مؤلفها يفتح، ربما لأول مرة، طريقا إلى رؤيـة"النورسي" للتاريخ هذه الرؤية التي لا تعني بالضرورة تغطية شاملة لتفاصيل وجزئيات الحدث التاريخي، ولا تجيب بالضرورة كذلك على كافة الأسئلة التي يطرحها والمعضلات التي يثيرها.

فقد يكفي – أحياناً- أن يقف مفكرٌ ما عند هذه المسألة الخطيرة أو تلك مما يتمخض عن التاريخ، وأن يقول كلمته في هذا الجانب أو ذاك من معطياته الغنية المتشابكة، لكي يستطيع المرء أن يتسلّم الإشارة ويعرف طبيعة التوجّه التاريخي في فكر الرجل.

وهكذا فإن تمركز هذه الرسالة عند عدد فحسب من المسائل الهامة في التاريخ الإسلامي، من بين مسائل ومعضلات كثيرة متشعبة، يجعلها تكسب أهميتها لأنها تحدثنا بأسلوب معّبر جميل عما أراد "النورسي" أن يقوله، وتمنحنا الإجابة عن بعض ما حيّر عقول أجيال شتى من المسلمين في مختلف الأماكن والأزمان.

إنها أشبه بالمفاتيح التي يضع المؤلف يده عليها وهو يرحل في فكر "النورسي" وهي-بالتالي- ليست محصورة في نطاق مسائل محدّدة بالذات، ولكنها-إذا أحسن استعمالها- كفيلة بإيجاد الجواب عن حشودٍ

نمطية من المعضلات التي حفل بها تاريخ الإسلام، بل تاريخ البشرية عموماً.

فالبحث عما وراء القبح والشر في الحدث التاريخي القريب المنظور، ومعاينة الحكمة البعيدة التي تتحرك حشود الأحداث في دائرتها الشاملة-

ورسم الحدود الفاصلة بين النسبي والمطلق في حركة التاريخ.. واكتشاف المعايير الثابتة للّهزائم والانتصارات التي شهدها المسلمون..

وتفحص طبيعة الارتباطات المعقدة الدقيقة بين الإرادة البشرية وبين القدر بمفهومه الشامل، المحيط، المتعالي..

وتأكيد "الواجب" كقيمة إيمانية، وتنظيم أولويته في الفعل التاريخي..

لهي المسائل التي تثيرها هذه الرسالة والتي يبدو للوهلة الأولى أنها تعالج أحداثاً بالذات مما حفل به تاريخنا الإسلامي، ولكن بإنعام النظر فيها يتبّين للقارئ أن تلك الأحداث المحددة في الزمن والمكان ليست هدف"النورسي" النهائي من كلمته فيها، إنما هدفه أوسع وأكثر دواماً وامتداداً، انه يحاول بإجاباته هذه أن يقدّم لنا "منهجاً إيمانياً" في التعامل مع الواقعة التاريخية، منهجاً يمتلك رؤية شمولية تتجاوز أسر المحدود وتندّ عن المواضعات الجزئية العابرة باتجاه قيم ومبادئ وأصول أكثر دواماً، يمكن أن تعتمد في تفسير التاريخ وتحليله.

وكما أن رجال الفقه الكبار قدموا لنا أصولاً كلية في معاملة الجزئيات من منظور الشريعة، فان هذه المبادئ التي تحلّلها الرسالة يمكن أن تكون أصولاً للتعامل مع الجزئيات التاريخية النمطية من منظور الرؤية الإسلامية للعالم.

فالفتنة التي تعرّضت لها الجماعة الإسلامية في فجر حياتها، عبر خلافة "عثمان بن عفان"ﷺ، ليست هي الوحيدة من نوعها في تأريخنا، والهزائم والانكسارات التي تعالجها الرسالة ليست هي وحدها عبر هذا التاريخ.

فما أكثر الفتن، وما أكثر الهزائم والانكسارات التي تجرّعها الأجداد والآباء والأحفاد..ولكن لماذا؟ وكيف؟ وما هي أبعاد تأثيراتها جميعاً على"المصير" في المنظور الرحب الشامل لحركة التاريخ؟!.

ذلك ما أراد المؤلف أن يمنحه القارئ عبر رحلته في فكر "النورسي" ذي التوجه التاريخي.

ويتمنى المرء أن لو حاول المؤلف وضع يده على المزيد من الشواهد التاريخية في معطيات"النورسي" الغزيرة، ويتمنى- كذلك- أن لو قدّم "النورسي" نفسه مساحات أوسع من حبكة تاريخنا الزاخر بالسرّاء والضراء، ليس من أجل التحاور مع مزيد من الجزئيات والتفاصيل بطبيعة الحال وإنما من أجل العثور على أصول؛ ومفاتيح أخرى يمكن أن تفسّر لنا حشوداً من الوقائع تنطوي تحت هذه المعضلة أو تلك، فتمنح المؤمنين في العالم ما يمكّنهم -أكثر- من الاستجابة لتحديات التاريخ،

ويمنحهم قدرة أمضى، على مواصلة طريق الحاضر لصياغة المستقبل المرتجى.

(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ* هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *) (آل عمران: 137 -141) وصدق الله العظيم.

د/عماد الدين خليل

الموصل 1986 م 1406 هـ

الفصل الأول

ما وراء القبح والشر

إن إيمان المؤمنين بالله تعالى يزيد ويتعزّز بكثرة وقوفهم على مظاهر الخير والجمال التي تتظاهر مفصحةً عن نفسها هنا وهناك من أرجاء الوجود، إذ يعني هذا- من جملة ما يعنيه للإنسان الباحث عن الحقيقة – أن وراء هذا الخير والجمال خالقا قديراً موصوفاً بكل الصفات الجمالية التي نجد انعكاساتها وآثارها على وجه الكائنات.

إن الوجه الآخر للعالم يبدو – للوهلة الأولى – وكأنه بحر طامٍ من الشرور والآثام، وموج هائج مخيف يضرب شواطئ الإنسانية بعنف، ويرسم فوق جبينها أشدَّ صور القبح دمامة، وأكثرها إيلاماً.

وهنا تنجم مسألة كانت –وما زالت – تستأثر باهتمام الناس وخلاصتها:

إن اللهِ –جلَّ وعلا – في مألوف العقل خير محض، وجمال مطلق، منـزّه عن النقص والقصور فيما يخلق ويوُجِدُ، فلا يمكن عقلا –أن يتسلل "القبح والشر" إلى هذا الوجود وهو من صنعه وإيجاده.

والحق في قضية "القبح والشر" أدق وأعمق من هذه النظرة الفوقية والسطحية التي ينظر من خلالها بعضُ مَنْ لا يريدون تكليف أنفسهم

عناء الغوص الشمولي والاستقصائي في مبنى الأشياء التي يقع عليها النظر وفي معناها، وفي مداها البعيد، وفيما يمكن أن تنطوي عليه آثارها المستقبلية من خير وجمال قد تفوتنا رؤيته في الآن والتو إلا أن المستقبل سيكشف عنه –لا محال – في وقته المناسب.

فما من شيء في هذا العالم ، وما من حدث يحدث فيه، أو أمر ينزل به، إلا وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره "أي بما سيعقبه من نتائج جميلة" كما يقرر "النورسي" رحمه الله.

فالشر المطلق –أي الشر الذي ليس في طبيعته تحفيزُ أي نوع من أنواع الخير –والقبح المطلق – أي القبح الذي لا يتكشف في خاتمة المطاف عن أي نوع من أنواع الجمال –في الأشياء والوقائع والأحداث لا وجود لهما أصلاً في هذا العالم كما يتصور البعض، بل لهما وجود اعتباري زائل إذا نظرنا إلى ما سيؤول إليه أمرهما من الخير والجمال في اجل الزمان.

وحتى "الشيطان" نفسه –عنوان الشرور والآثام في هذا العالم – لا يعدم من خدمة يؤديها للإنسان بالرغم منه، حيث يثير فيه – بالاحتراب معه – قواه الجوانية الخيرة، ويحرك في نفسه عزْقَ التحدي والتحفز، فينكب على نفسه يرمم حصونها، ويسدُّ منافذها وثغورها، فلا يقوى الشيطان على الانسلال إلى داخله، فيبقى قلبه طاهراً نظيفاً مهيأً لقبول أنوار الله ورحماته، فإذا به ينفع –راغماً – من حيث أراد الضرر، تماماً كما حصل له مع "آدم" –عليه السلام- أبي البشر، فلئن استطاع بمكره أن

يكون سبباً في إهباطه من الجنة من جهة، إلا أنه من جهة أخرى كان سبباً في تفتح استعدادات "آدم " –عليه السلام – الكامنة. وارتقائها إلى أقصى غاياتها في التوبة والندم وانكسار القلب والعبودية الخالصة لله والتي كان من نتائجها الرضا والمغفرة والمحبة من الله تعالى، وهي أقصى ما يتمناه المؤمن ويطمح إليه.

وفي قصة "موسى" و"الخضر" عليهما السلام، والتقائهما ثم مضيهما معاً في رحلة عملٍ معرفية يجوبان خلالها بعض أسرار ما يتشكل من أحداث، ويستبطنان بعض غوامض ما تتكشف عنه الأيام من وقائع.. في هذه القصة الشيقة التي يحكيها لنا القرآن الكريم إيماء وتنبيه إلى أن الوقوف – أحياناً – على ظواهر الأمور والأحداث، والحكم عليها بمقتضاها قد يوقع في الظلم والخطأ.

فما كان يبدو في سلوك "الخضر" عليه السلام من قسوة وشر وتهور في خرقه للسفينة، وقتله للغلام، وإقامته للجدار –وإن كان سلوكه هذا مداناً حكماً وتشريعاً إلا أنه تبين بعد التفسير الذي قدّمه"الخضر"- أنه ينطوي على الرحمة والخير والحكمة فيما سيثمر من ثمار في آجل الزمان، ومستقبل الأيام. وهذه النظرة الاستبطانية والمستقبلية للأمور وعدم الوقوف عند ظواهرها الآنية العجلى، وسطحيتها المباشرة، هي النظرة التي يجب أن ننظر من خلالها –أيضاً – إلى أحداث التاريخ الإسلامي ووقائعه، ولاسيما مآسيه وأحزانه التي ما زالت تثير سحابة قاتمة من الأسى في ضمير المؤمن الغيور.

ومـا لـم يصـطحب المـؤرخ المسـلم هـذه النظـرة الشـمولية والاستقصائية في التحليل والتعليل للحدث التاريخي الذي يعالجه، فإنه سيقع –نتيجة ذلك – في تصورات وهمية مربكة واستنتاجات فجّة قد تجره إلى شيء من عدم الاحترام لبعض الشخصيات التي يدور عليها الحدث، والاستهانة بها إلى حد التشكيك بإيمانها وإسلامها كما تورط بالانزلاق إلى هذا الدرك من الخطيئة بعض من ذوي الأغراض بلا تثبت أو دليل !.

ولما كان تاريخ الأمة –أياً كان – إنما هو حركة قَدرَها المقدور الوثيق الصلة بعالمي الغيب والشهادة، والساري في كيان العالم مشكلاً بعض تاريخه الماضي والحاضر وكذلك المستقبل، لذا فكم يكون من السذاجة بمكان أن يقف أحدٌ عند ظاهرة تاريخية بادية السقم من غير النظر إلى ما يمكن أن تنطوي عليه علتها من صحة وعافية في مداها البعيد، وإلى ما يمكن أن تتركه من مناعة في جسم الأمة في مستقبل أيامها.

فأية واقعة تاريخية – مهما بدت للعيان سلبية ومأساوية وشريرة – إنْ هي إلا بعض عواصف القَدَر وسحبه وبوارقه وأنوائه، سرعان ما تنقشع عن صحو ضحيان ساطع النور في روح الأمة وضميرها تستضيء به أجيالها زماناً بعيداً.

و"النورسي" –رحمه الله– ذو النفس الصافية الجميلة يرى الجمال في أشد الظلمات حلكة، ويرى بذور خير يمكن أن تختفي في جوانب أي شر.

وعلى ضوء نظرته هذه يمكن أن نفهم رأيه في إشاراته التاريخية التي يشير بها إلى بعض أحداث التاريخ الإسلامي. ونود التنويه إلى أن هذه الإشارات لا تضمها رسالة واحدة أو كتاب واحد، بل جاءت متفرقة في العديد من الرسائل والكتب حيث كان يلتفت هذه الالتفاتات الذكية عندما تحين المناسبة ضمن الموضوع الذي هو بصدد الكتابة فيه .

والآتي من كلامه هو القاعدة الكلية التي ينطلق منها الرجل في تفسيره لأحداث الكون والتاريخ حيث يقول:

[نوضح – هنا – سراً من أسرار الآية الكريمة: ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شيء خَلَقَهُ﴾ (السجدة:8)

نعم، إن كل شيء في الوجود –بل حتى ما يبدو أنه أقبح شيء – فيه جهة حُسن حقيقية، فما من شيء في الكون، وما من حادث يقع فيه إلا وهو جميل بذاته، أو جميل بغيره، أي: جميل بنتائجه التي يفضي إليها..

فهناك من الحوادث التي يبدو ظاهر أمرها قبيحاً مضطرباً ومشوشاً، إلا أنَّ تحت ذلك الستار الظاهري أنواعاً من جمال رائق، وأنماطاً من نظم دقيقة:

فتحت حجاب الطين والغبار والعواصف والأمطار الغزيرة في الربيع تختبئ ابتسامات الأزهار الزاهية بروعتها، وتحتجب رشاقة النباتات الهيفاء الساحرة الجميلة.

وفي ثنايا العواصف الخريفية المدمرة المكتسحة للأشجار والنباتات، والهازة للأوراق الخضراء من فوق الأفنان، حاملةً نذر البين، وعازفةً لحن الشجن والموت والاندثار، هناك بشارة الانطلاق من أسر العمل لملايين الحشرات الرقيقة الضعيفة التي تتفتح للحياة في أوان تفتح الأزهار، فتحافظ عليها من قَرّ الشتاء وضغوط طقسه، فضلاً عن أن أنواء الشتاء القاسية الحزينة تهيئ الأرض استعداداً لمقدم الربيع بمواكبه الجميلة الرائعة.

نعم!.. إن هناك تفتحاً لأزهار معنوية كثيرة تختبئ تحت ستار عصف العواصف إذا عصفت وزلزلة الأرض إذا تزلزلت، وانتشار الأمراض والأوبئة إذا انتشرت.

فبذور القابليات، ونوى الاستعدادات الكامنة – التي لم تتسنبل وتتجمل نتيجة حوادث تبدو قبيحة في ظاهر شأنها، حتى كأن التقلبات العامة، والتحولات الكلية في الوجود إنْ هي إلا أمطار معنوية تنزل على تلك البذور لتستنبتها .

بَيْدَ أن الإنسان المفتون بالمظاهر والمتشبث بها والذي لا ينظر إلى الأمور والأحداث إلا من خلال أنانيته ومصلحته بالذات، تراه تتوجه أنظاره إلى ظاهر الأمور، وتنحصر فيها، فيحكم عليها بالقبح!.

وحيث إنه يزن كل شيء بحسب نتائجه المتوجهة إليه فحسب تراه يحكم عليه بالشر! علماً أن الغاية من الأشياء إن كان المتوجه منها إلى الإنسان واحدة، فالمتوجه منها إلى أسماء صانعها الجليل تعدُّ بالألوف، فمثلا:

الأشجار والأعشاب ذات الأشواك التي تدمي يد الإنسان الممتدة إليها، يتضايق منها الإنسان ويراها شيئاً ضاراً لا جدوى منه، بينما هي لتلك الأشجار والأعشاب في منتهى الأهمية حيث تحرسها وتحفظها مِمّنْ يريد مسَّها بسوء.

مثلاً: انقضاض العقاب على العصافير والطيور الضعيفة يبدو منافياً للرحمة، والحال أن انكشاف قابليات تلك الطيور الضعيفة وتحفيزها للظهور لا يتحقق إلا إذا أحسَّت بالخطر المحدق بها، وشعرت بقدرة الطيور الجارحة على التسلّط عليها.

ومثلاً : إن هطول الثلوج الذي يغمر الأشياء في فصل الشتاء ربما يثير بعض الضيق لدى الإنسان، لأنه يحرمه من لذة الدفء ومناظر الخضرة، بينما تختفي في قلب هذا الجليد غايات دافئة جداً ونتائج حلوة لذيذة يعجز الإنسان عن وصفها.

ثم إن الإنسان من حيث نظره القاصر يحكم على كل شيء بوجهه المتوجه إلى نفسه، لذا يظن أن كثيراً من الأمور التي هي ضمن دائرة الآداب المحضة أنها مجافية لها، خارجة عنها.

فالحديث عن عضو تناسل الإنسان – مثلاً – مخجل فيما يتبادله من أحاديث مع الآخرين.. فهذا الخجل منحصر في وجهه المتوجه للإنسان، إلا أن أوجهه الأخرى أي من حيث الخلقة ومن حيث الإتقان ومن حيث الغايات التي وجد لأجلها موضع إعجاب وتدبر. فكل من هذه الأوجه التي فطر عليها إنما هي وجهٌ جميل من أوجه الحكمة، وإذا هي – بهذا المنظار – محض أدب لا يخدش الحديث عنها الذوق والحياء.

حتى أن القرآن الكريم – الذي هو منبع الأدب الخالص – يضم بين سوره تعابير تشير إشارات في غاية اللطف والجمال إلى هذه الوجوه الحكيمة والستائر اللطيفة، فما نراه قبحاً في بعض المخلوقات، والآلام والأحزان التي تخلفها بعض الأحداث والوقائع اليومية لا تخلو أعماقها قطعاً من أوجه جميلة، وأهداف خيرة، وغايات سامية.

فالكثير من الأمور التي تبدو – في الظاهر – مشوشة مضطربة ومختلطة، إن أنعمت النظر إلى مداخلها طالعتك – من خلالها- كتابات ربانية مقدسة رائعة، وفي غاية الجمال والانتظام والخير والحكمة.][2]

---

[2] () الكلمات ص. 249-251 النقطة الثانية من الكلمة الثامنة عشرة .

التاريخ والقدر

سيظلُ التاريخ الإسلامي – بنظر المؤرخ المنصف – معجزاً بعبقريته. وسرعة مدّه، وقدرته الفذّة على شقّ طريقه وأخذ مكانه المرموق في أكثر صفحات التاريخ الإنساني إشراقا وأجلّها حضارةً، ومع ذلك فهو لا يخلو – كأي تأريخ آخر – من أحداث مرعبة دامية، ووقائع مأساوية، يقف عندها المؤمن الغيور موقف الحيرة والانشداه والحسرة ويمتلئ قلبه حزناً وروحه أسى، وهو يقرأ هذه الأحداث، ويجول في أهوالها، ويحسُ وكأنّ سكيناً حادّ الشفرة يغوص في قلبه، ويمزق روحه، ولا يعرف سبباً معقولاً يمكن أن يدفع بهذه الأحداث إلى صفحات التاريخ، ويتمنى – في نفسه – لو خلت صفحات تاريخه منها.

والذين تناولوا بأقلامهم هذه الأحداث المروعة، والفتن الدامية من المؤرخين وكتّاب السير – على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم ومناحيهم – لم يتيسر لهم أن يضعوا أيدينا على مواضع "الرحمة" التي تنطوي عليها، أو يوقفونا على أسرار "الحكمة" التي تكتنفها وتسري فيها لكي نشعر ببعض العزاء.

ولا أعرف أحداً – على قدر علمي – حاول أن يستشف "الحكمة الإلهية" من وراء هذه الأحداث، أو يتلمس فيها مواطن " الرحمة" ويدلنا عليها مثل ما فعل النورسي.

وغاية ما فعلوه هو تعاملهم معها كأحداث بشرية محضة، معزولة عن آفاقها القدرية الرحيمية، ومبتوتة الصلة بالقدر الحكيم الذي ما انفكت أصابع قدرته تغزل في مغازل الأرض مصائر الدول والأمم، وتنسج على أنوال الأحداث نسيج الحضارات، مستخدمةً البشر –خامتها الأساس – بما يمتلكون من خيارات هي أيضاً بعضٌ من خياراتها، ومستفزة فيهم إرادات " الدفع والجذب" بعضهم لبعض، لتنقدح من خلال صراعاتهم شرارات الأفكار، وتنشعل مصابيح العقول، فتثرى – بذلك – الحضارات وتخصب المعارف والعلوم.

فحين تسكن رياح الأمم، ويكثف هواؤها ويثقل، ويسترخي روحها، ويشيع في كيانها خدر النوم والتبلد، ويغشاها خريف النضج المبكر، وتكاد ثمار عبقريتها يصيبها العَفَنُ، وبذور علومها يأكلها السوس، ونوى معارفها ينخرها الدود.. حين يحصل هذا تمتد يد القدر لتسوط رياح التاريخ بسياطها اللاهية، فتندفع هائجة مائجة عاصفة عصفاً، وخاضّة شجرة حياتها خضاً فتتساقط ثمار عبقريتها، وتتطاير إلى أرجاء الأرض، وتحمل العواصف الهوج بذورها ونواها إلى أنحاء العالم، وبذلك تغنى الأرض، وتندى الحضارات وتخضل، فتجود العقول والأفكار حيثما تقع البذور، وأينما تنقذف النوى.

فالحدث العاصف بالأمة، هو حدث مزلزل مثير للرعب والإشفاق من وجهة نظر الإنسان بقصور رؤيته، ومحدودية علمه، وتشبثه بجزئيات التاريخ ومفرداته، وعجزه عن الإحاطة الكاملة، بكليات التاريخ ومطلق أحداثه، وعموم غاياته ومقاصده.

غير أن "الحدث" نفسه يغدو – في نظر (القدر) المحيط، وفي علمه المطلق الشامل بالماضي والحاضر والمستقبل، وبكلية الزمن آزاله وآباده، ومطلق شؤونه – شيئاً آخر فوق المأساة والآلام والدموع، وفوق الأحزان والفواجع.

لذا فان (القدر) حين يمضي في سبيله إلى غاياته في بعث العطاء الحضاري للأمة من خلال النَوء العاصف داخل كيان الأمة، لا يمكن أن يوقفه عن غاياته ويصده عن سبيله شيء مهما كان هذا الشيء مفجعاً ومأساوياً ودامياً، وخالياً من الرحمة والحكمة في النظرة المبتسرة الضيقة.

فما يبدو قاسياً قد ينطوي على الرحمة، وما يبدو عبثياً قد ينطوي على الحكمة، وما يبدو تدميراً لروح الأمة قد يكون سبباً في إنهاضه.

ومن بين السحب والأنواء والظلمات تتألق فجأةً عبقرية الأمة وتشرق شمس عظمتها [3].

ونحن لا نتمحل هذا الرأي تمحلاً، ولا نتعسفه تعسفاً فالمؤرخون على اختلاف مناحيهم وفلسفاتهم – وحتى الماديون منهم – لا يسعهم إنكار "الحكمة والرحمة" وآثارهما الهائلة فيما تنطوي عليه دساتير الكون والطبيعة والحياة ونواميسها.

---

[3] () انظر "النافذة الرابعة عشرة " في النقائض والأضداد من كتاب "النوافذ" للنورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، عرض وتعليق أديب الدباغ – مطبعة الزهراء الحديثة – الموصل – 1985

فما من أحد – مهما اشتطَّ في ماديته – ينكر النظام المشاهد والملموس الذي يحكم هذا العالم ويسيره ويضبط حركات موجوداته من أصغر ذرة فيه إلى أعظم جرم.

والنظام – أي نظام كما لا يخفى – دليل حكمة وعلم .

وبالمقابل فإن أحداً لا يستطيع تجاهل ما يفيض به الوجود من لمسات الرحمة واللطف والودّ في المخلوقات عموماً، ويكفي فيض الأمومة وحدها في الطير والوحش والإنسان دليلاً لمن يتعامى عن أي دليل.

ولما كان "الإنسان" جزءاً مهماً من هذا الكون، لا بل هو خلاصة حياة هذا الكون، وأنضج ثماره كما يقول "النورسي" لذا فإن دستور "الحكمة والرحمة" الذي يشيع في كلية الكون يشيع أيضاً في أجزائه بل في أصغر أجزائه وأقلّها شأناً.

وعليه فإنَّ تاريخ هذا الإنسان – الذي يمثل مضطرب حياة الإنسان ومسرح فاعليته على الأرض – بأحداثه ووقائعه لا يمكن أن تخلو هي الأخرى – بأي حال من الأحوال – من الحكمة والرحمة، مهما بدت – في الظاهر – عنيفةً قاسيةً خاليةً من الجدوى والمغزى.

والشرّ والفساد اللذان يقترفهما الأفراد والشعوب والدول – وإنْ كانا مُدانين في شريعة العدل والخير، وعائقين إلى حدّ ما لارتقاء التاريخ وسموه نحو جمالية الكمال الإنساني – إلا أنهما في حصيلة مداهما البعيد يشكلان حافزاً ودافعاً لحركة التاريخ في الاتجاه المعاكس لهما.

وقد سئل "النورسي" – رحمه الله – هذا السؤال:

[ما حكمة تلك الفتنة التي أصابت الأمة الإسلامية في عصر الراشدين، وخير القرون، حيث لا يليق بهم القهر ونزول المصائب؟ وأين يكمن وجه الرحمة الإلهية فيها ..؟.

الجواب:

كما إن الأمطار الغزيرة المصحوبة بالعواصف في الربيع تثير كوامن قابليات كل طائفة من طوائف النباتات وتكشفها، وتثير البذور وتطلق النوى، فتتفتح أزهارُها الخاصة بها، ويتسلم كُـلٌّ منها مهمته الفطرية.

كذلك الفتنة التي أُبتلي بها الصحابة الكرام والتابعون رضوان الله عليهم أجمعين أثارت بذور مواهبهم المختلفة، وحفزت نوى قابلياتهم المتنوعة، فأنذرت كُـلٌّ طائفة منهم وأخافتهم من أنَّ الخطر محدق بالإسلام، وأنَّ النار ستشب في صفوف المسلمين، مما جعل كلَّ طائفة تهرع إلى حفظ الدين والذود عن حياض الإيمان، فأخذ كُلٌّ منهم على عهدته مهمة من مهمات حفظ الإيمان وشمل الإسلام، كُلٌّ حسب قابليته، فانطلق بكل جدّ وإخلاص في هذا السبيل، فمنهم مَنْ قام بحفظ الحديث النبوي الشريف، ومنهم مَنْ قام بحفظ العقائد والحقائق الإيمانية ومنهم مَنْ قام بحفظ القرآن الكريم.

وهكذا انضوت كُلُّ طائفة تحت مهمة وواجب من الواجبات التي يفرضها حفظ الإيمان، وصيانة الإسلام، وسعت في سبيل أداء مهمتها

سعياً حثيثاً فتفتحت – من البذور التي بذرتها في الأرجاء تلك الأعاصير الهوجاء العنيفة – زهورٌ بهيجة بألوان زاهية شتّى في عالم الإسلام، حتى غدا العالم الإسلامي رياضاً يانعة بالورود والرياحين، إلاّ أنه – ويا للأسف – ظهرت بين تلك الرياض البديعة أشواك أهل البدع أيضا.

وكأنَّ يدُ القدر الإلهي قد خضّت ذلك العصر بجلال وهيبة، وأدارته بشدة وعنف، فأثارت الهمم، وألهبت المشاعر لدى أهل الهمة والغيرة، فبعثت تلك الحركة – المنطلقة عن المركز – كثيراً جداً من أئمة المجتهدين والمحدثين والحفاظ والأصفياء والأقطاب الأولياء إلى أنحاء العالم الإسلامي وألجأتهم إلى الهجرة، وهيجت المسلمين شرقاً وغرباً، وفتحت بصيرتهم ليغنموا من كنوز القرآن وخزائنه].[4]

---

[4] () المكتوبات ص. 129- المكتوب التاسع عشر، الإشارة البليغة الخامسة، ترجمة إحسان الصالحي، دار نشر سوزلر استانبول 1992

إن "الإيمان" هو "الحقّ" المطلق الذي لاحَقَّ دونه، ولاحَقَّ بعده.

وأنَّ "الكفر" هو "الباطل" المطلق الذي يهون كُلُّ باطل قبله ولا يعظم باطل بعده.

والاثنان في صراع رهيب دائم دوامَ السماوات والأرض.

وكُلُّ "حق" إنما يستمدُّ قوة أحقيته، وعمق مصداقيته، على قدر صلته بالإيمان قرباً وبعداً، وامتثالا وإعراضاً.

وكذلك فكُلُّ "باطل" إنما يستمدّ جرثومة باطلة، وقبيح منكره، على قدر صلته بالكفر قرباً وبعداً، وامتثالا وإعراضا.

ونسارع فنقرر :

إن "الإيمان" و"الكفر" – رغم تناقضهما الحادّ واختلافهما في كل شيء – ماكثان جنباً إلى جنب على هذه الأرض مكوث الإنسان.

(فالإيمان يحيا على هذه الأرض ومن حقه أن يحيا .. والكفر يحيا على هذه الأرض وله أن يحيا).

هكذا شاءت حكمة اللهِ تعالى، لأنَّ الأشياء والمعاني لا تتميز – في هذا العالم – إلاّ بأضدادها.

لذا فلو حشد"الكفر" كُلَّ طاقاته وإمكاناته للقضاء على "الإيمان" واجتثاث أصوله من الأرض لفشل وخاب وانكسر، ولم يستطع إلى ذلك سبيلاً لأن" حق الحياة" للإيمان مسألة مقررة في علم اللهِ، وله الغلبة والنفاذ.

والعكس صحيح أيضاً، فإن" الإيمان" مهما قوي واشتد ساعده، وتعاظمت طاقاته وإمكاناته، فإنه لن يستطيع اجتثاث شأفة " الكفر" من الأرض أو القضاء على جرثومته، لأن "حق تشبثه بالبقاء" له الغلبة والنفاذ أيضاً.

هذه مسألة مفروغ منها ليست في حاجة إلى مزيد بيان. وتأريخ البشرية مليء بالشواهد عليها.

ومنذ عرف المسلمون الاستعمار، وذاقوا مرارته، وعاشوا مذلته، وهم يتساءلون عن سرّ انكسارات "الإيمان" وهزائمه في معظم معاركه في ميادين الصراعات جميعاً رغم أنه"حق" صراح، إزاء باطل الاستعمار والمستعمرين.

ولا نزعم أن "الإيمان" كان دائماً في موضع الهزيمة والانكسار. وأنه لم ينتصر في أيّ من معاركه، ولاشك أن الحرب كانت سجالاً بينهما، ولكن ربما كانت هزائم "أهل الإيمان" وانكساراته خلال القرون

الماضية أكثر من انتصاراته، فلماذا يا ترى ؟! وأين نذهب بالحكمة التي تقول: "الحق يعلو ولا يعلى عليه"؟

هذا السؤال قد حيّر المؤمنين والحكماء والأخلاقيين.. وقد أجاب كُلٌّ منهم – من وجهة نظره – الجواب الذي يراه مناسباً.. ومع كثرة الأجوبة فما زالت غالبية المؤمنين لم يروا في هذه الإجابات الجواب الشافي والوافي الذي يطمئنون إليه.

وسبب ذلك يعود إلى افتقار هذه الإجابات إلى الشمول والإحاطة، واقتصارها على أجزاء من الحقيقة مبعثرة هنا وهناك من دون الوقوع على كلية الحقيقة التي تكفي وتغني.

ولكنَّ النظرة الشمولية الجامعة – كما هي عند النورسي – ترى في دساتير الكون ونواميس الوجود، شريعة إلهية أخرى لا تقلّ أهمية عن شريعة الإيمان والإسلام، فكما أن المسلم الذي يخالف شريعة قرآنه، وسنة نبيه **ق**، ويتهاون فيها، ويخرق دساتيرها ينال عقابه الأليم على ذلك في الآخرة، فكذلك مخالفة الشريعة الكونية، والنواميس الوجودية، وخرقها وعدم فهمها، والالتزام بها، والتجاوب معها، يُعاقبُ عليها "المسلم" في الدنيا بالهزيمة والانكسار وربما الانسحاق، ولو كان يملك إيماناً راسخاً كالجبال.

فالوقوف عند واحدة من الشريعتين، وإغفال الأخرى، هو واحد من أسباب الإحباط والانكسار الذي عرفته جماعة المؤمنين.

فـ"الحق يعلو" وله الغلبة والانتصار أمر لا غبار عليه، ولكنّ انطـواء "الحـق" علـى "جزئيـة باطلـة" واحـدة، ربمـا تسـبب لـه الكـوارث والـدمار والهزيمة، أمام باطل ينطوي على " جزئية حق" واحدة.

فـ "الباطل" – هنا – منتصر.. ولكـن على ماذا منتصر؟ أهـو منتصـر على "كلية الحق"؟

كلاًّ.. بـل هـو منتصـر علـى هـذه الجزئيـة مـن الباطـل الـذي يضـم "الحق" جوانبه عليها خطأً – ربما– ومن غير عمد.

فـ"الحق" صرح معنوي عظيـم البناء، ينبغي أن تتماسك لبناته وتتماثـل شكلاً "أسلوباً" ومعنى "غايةً" ..ووجود لبنة فاسدة واحدة في هذا الصرح – لأي سبب – قد تهيئ الصرح كله للانهيار والدمار، وتغدو الثغرة القاتلة التي ينفذ منها " الباطل" إلى قلب "الحق" بكل سهولة ويسر.

ولا يَعْجَبنَّ أحد من هـذا الـذي نقـوله فـربَّ سد عظيـم كـان وراء تخريبه وانهياره فأر صغير – كما تقول الأسطورة – لـم يكـن أحـد ليصـدق عظم التخريب الذي يمكن أن يحدثه.

وربّ قصر باذخ لمعماري عظيم يقوم بناؤه كله على حجر واحد في مكان ما من بنائه، لو سُحِبَ هذا الحجر من مكانه لانهار القصر برمته كما تقول الأسطورة الأخرى.

فالقوة – الفكرية أو المادية – "بيد الباطل" هي "جزئية الحق" التي ينطوي عليها، وهي التي تسبب لـه الانتصار على أهل "الحق" إذا كـانوا عُزَّلاً منها..

فما هو حظ (القوى) من الحق..؟ وكيف تكتسب (القوة) شيئاً من خاصيته في العلو والانتصار؟

وكل قوة – مهما كان نوعها ووسائل استخداماتها – إنما هي نتاج العلم.. فلا قوة من غير علم.. ولا يبلغ العلم أقصى عطائه إلا في إتباع "الشريعة التكوينية" واحترامها والتنقيب عن دساتيرها وسننها، ثم تسخيرها في حيازة ناصية العلم، وامتلاك جبروته، وهو بالتالي يؤدي إلى الاستحواذ على (القوة) التي يغزو بها "الباطل" الحق وأهله الذين لا يملكون منها شيئاً.

فلكون "القوى" جميعاً ترجع في أصولها وجذورها الأولى إلى "الشريعة التكوينية" التي تنتظم العالم وتخضعه لها، وهي بالتأكيد "حقٌّ محض" كأحقية شريعة "الوحي" النازل على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، لذا فقد اكتسبت "القوة" بهذا النسب خاصية "الحق" في العلو والانتصار، ولو كانت بيد "الباطل".

ثم إنَّ التحدي والاستفزاز يخرج المخبوء، ويكشف عن المستور، ولا شيء يوخز "الحق" وخزاً مؤلماً، ويخضه خضاً عنيفاً، ويوقظه من حال السبات والسكون مثلما يفعل "الباطل". فالباطل اكتسب حق الحياة ليكون عامل تنبيه، وجرس إنذار ينذر "الحق" بالخطر، ويستدعيه متحدياً ليقوم قومة واحدة، ويلقي بكل ثقله في ساح المعركة والنزال، وبذلك يزداد صلابة وتمرساً، ويتخلص – نتيجة هذا الوخز والخض – مما كان عالقاً به من خَبَثٍ يمكن أن يورده موارد الهلاك لو ظلَّ عالقاً به .

وحتى لو خسر "الحق" – لأي سبب من الأسباب التي ذكرناها آنفاً – معركة هنا، ومعركة هناك، إلا أن العاقبة له لامحال، إذا عرف كيف يفيد من مجمع الشريعتين" الدينية" و"التكوينية" على الوجه السليم.

وبعدُ :

نأمل أن نكون قد وفقنا إلى إلقاء بعض الضوء في طريق القارئ الكريم قبل أن ندلف مباشرة إلى رأي "النورسي" في أسرار الهزيمة والانتصار، حيث يقول – رحمه الله- :

[سُئلتُ: لما كان "الحق يعلو"[5] أمرَ حق لا مراء فيه، فلِمَ ينتصر الكافر على المسلم، وتغلب القوة على الحق؟

قلتُ: تأمل في النقاط الأربع الآتية تنحل المعضلة:

النقطة الأولى:

لا يلزم أن تكون كُلُّ وسيلةٍ من وسائل كُلّ باطلٍ باطلاً..فالنتيجة إذن:

إن وسيلةً حقة (ولو كانت في باطل) غالبةٌ على وسيلةٍ باطلةٍ (ولو كانت في الحق).

وعليه يكون:

---

[5] () (الإسلام يعلو ولا يعلى): رواه الدارقطني والضياء في المختارة والروياني عن عائذ بن عمر والمزني رفعه، والطبراني والبيهقي عن معاذ رفعه، وعلقه البخاري في صحيحه. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية احمد. والمشهور ايضاً على الألسنة: الحق يعلو ولا يعلى عليه (كشف الخفاء 1/127).

حقٌّ مغلوب لباطل، مغلوبٌ بوسيلته الباطلة، أي مغلوب مؤقتا (بسبب وسيلته الباطلة). وهو ليس مغلوباً بذاته. وليس دائماً، لأن عاقبة الأمور تصير للحق دوماً (إذا استطاع التخلص من وسيلته الباطلة).

أما القوة (بيد الحق أو بيد الباطل) فلها من الحق نصيب (في العلو والانتصار) وفيها سرٌّ للتفوق كامن في خلقتها..[6]

النقطة الثانية

بينما يجب أن تكون كُلُّ صفةٍ من صفات المسلم مسلمةً مثله، إلاّ أن هذا ليس أمراً واقعاً، ولا دائماً. (فيتعرض المسلم بسبب ذلك إلى الهزيمة).

ومثله لا يلزم أيضاً أن تكون صفات الكافر جميعها كافرةً ولا نابعة من كفره (بل قد تكون بعض صفاته هي مما يتصف بها المسلم الحق) وكذا الأمر في صفات الفاسق، لا يشترط أن تكون جميعها فاسقة، ولا ناشئة من فسقه.

إذن:

صفةٌ مسلمةٌ يتصف بها كافرٌ تتغلب على صفةٍ غير مشروعة لدى المسلم وبهذه الوساطة (وبهذه الجزئية من الحق) يكون ذلك الكافر غالباً على ذلك المسلم (الذي يحمل صفةً غير مشروعة)

---

6 () الجمل الموضوعة بين هلالين هي من وضعنا، اضطررنا إليها للمزيد من التوضيح – المؤلف.

ثم إنَّ حق الحياة في الدنيا شامل وعام للجميع، والكفر ليس مانعاً لحق الحياة الذي هو تجلٍ للرحمة العامّة، والذي ينطوي على سرّ الحكمة في الخلق.

النقطة الثالثة

لله سبحانه وتعالى – تجليان يتجلى بهما على المخلوقات – وهما تجليان شرعيان صادران من صفتين من صفات كماله جَلَّ وعلا.

أولهما: الشرع التكويني، أو السنة الكونية الذي هو المشيئة والتقدير الإلهي الصادر من صفة الإرادة الإلهية.

والثاني: الشريعة المعروفة الصادرة من صفة الكلام الرباني، (أي: الوحي الإلهي).

فكما أن هناك طاعةً وعصياناً تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعةٌ وعصيان تجاه الأوامر التكوينية (أي السنن الكونية والحياتية)، وغالباً ما يرى الأولُ – مطيعُ الشريعة والعاصي لها – جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني – مطيعُ السنن الكونية والحياتية والعاصي لها – غالباً ما ينال عقابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصرُ.

وجزاء البطالة والتقاعس الذلُّ والتسفل.

كذلك ثواب السعي الغنى،

وثواب الثبات التغلب

مثلما إنّ نتيجة السم المرض، وعاقبة الترياق والدواء الشفاء والعافية.

وتجتمع أحياناً أوامر الشريعتين معاً في شيء ما، فلكل منها جهة (عمل فيه).

فطاعة الأمر التكويني – الذي هو حق – هذه الطاعة غالبة – لأنها طاعة لأمر إلهي – على عصيان هذا الأمر بالمقابل، لأن العصيان – لأي أمر تكويني – يندرج في الباطل ويصبح جزءاً منه.

فإذا ما أصبح حقٌ وسيلةً لباطل، فسينتصر على باطل أصبح وسيلةً لحق.. وتظهر النتيجة :

حقٌ مغلوبٌ أمام باطل!.. ولكن ليس مغلوباً بذاته وإنما بوسيلته.

إذن فـ"الحق يعلو" ..يعلو بالذات.. والعقبى هي المرادة .. فليس العلو قاصراً على الدنيا.. إلاّ أن التقيد والأخذ بحيثيات الحق مقصود ولابد منه.

النقطة الرابعة

إنْ ظَلَّ حقٌّ كامناً في طور القوة – أي لم يخرج إلى طور الفعل المشاهد – أو كان مشوباً بشيء آخر، أو مغشوشاً، وتطلّب الأمرُ كشف الحق وتزويده بقوة جديدة، وجعْله خالصاً زكياً.. يُسلَّط عليه – مؤقتاً – باطلٌ، حتى يخلص الحق – نتيجة التدافع من كل دَرَن، فيكون طيباً، ولتظهر مدى قيمة سبيكة الحق الثمينة جداً.

فإذا ما انتصر الباطل، في الدنيا في مكان وزمان معينين فقد كسب معركة ولم يكسب الحرب كلها، لأن (والعاقبة للمتقين) هي المآل الذي يؤول إليه الحق.

وهكذا الباطل مغلوبٌ – حتى في غَلَبه الظاهر – وفي : " الحق يعلو " سر كامن عميق يدفع الباطل قهراً إلى العقاب في عقبى الدنيا أو الآخرة.. وهو (أي الحق يستشرف في علوه الآخرة، ويرقى إليها من دون الباطل)..وهكذا فالحق غالب مهما ظهر أنه مغلوب].[7]

---

[7] () الكلمات،ص.871-872، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ، دار سوزلر استانبول 1992.

كان "المجتمع النبوي " نزّاعاً بكل جوارحه نحو" الكمال المطلق" الخالص من الأهواء البشرية في "العدل والحق " وكل القيم الأخرى التي جاء بها الإسلام.

وكانت "الدولة" تعكس – من خلال ممارساتها لشؤون الحكم – هذا النزوع وتسعى مخلصة للتحقق بهذا الهدف السامي .

فالمحاولة الجادة والمخلصة للتحقق بـ"المطلق" من كل شيء، واستشراف آفاقه، والنظر إلى الأشياء بمنظاره، ووزن الرجال بميزانه، والحكم عليهم بمقاييسه، هو سمة العصر النبوي وطابعه العام.

فكل صفة إيمانية لا تبذل جهدها للاستمداد من "المطلق" ولا تحاول – في الممارسة – الارتقاء إليه تظلُّ دون المستوى المطلوب بمقاييس هذا العصر .

فالشجاعة – مثلاً – مطلوبة من كل مؤمن، ولكن الشجاعة لا تبلغ "المطلق" حتى تتحول – عند الحاجة – إلى شهادة، والشهادة نفسها تبقى دون الكمال ما لم تكن خالصة لوجه الله.

والسخاء صفة المؤمنين جميعاً، ولكنَّ السخاء لا يبلغ أقصى درجات كماله عند المؤمن حتى يتحول إلى إيثار الغير على النفس إذا اقتضت الضرورة ذلك.

و"طلب العلم فريضة على كل مسلم " كما ورد في الحديث[8] ولكن طالب العلم هالك ما لم يطلبه لله ويكرسه في سبيله .

و"العدل" صفة لابد من توفرها في "الحاكم المؤمن " ولكنَّ " العدل المطلق" في المجتمع النبوي كما يريده الرسول **ق** لأمته، لم يكن ليراه الناس عياناً، ويتمثلونه واقعاً، حتى يرتقي "بلال **ك** " الكعبة ويؤذن في الناس للصلاة، وحتى يصبح "سلمان **ك**" – مجازاً – من آل البيت، إكراماً له، وتسريةً عنه.

وإقامة صرح "الحق" بين الناس من أوجب وجائب السلطة الحاكمة، ولكنَّ "الحق المطلق" لم يستبن للناس تماماً لو لم يقف الرسول **ق** بين الناس كاشفاً عن ظهره الشريف ويقول : -

(مَنْ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليجلده.. [9]) إلى آخر الحديث.

---

8 () رواه البهيقي وابن عدي والطبراني والخطيب البغدادي والطيالسي وغيرهم كثير ، وفي طرقه مقال وحسن بعض طرقه السيوطي في الدور المنتثرة (ص 105). وأخرجه ابن الجوزي في منهاج القاصدين من جهة أبي بكر بن داود وقال : ليس في حديث طلب العلم فريضة اصح من هذا. انتهى. (عن كشف الخفاء للعجلوني، باختصار 2/43. راجع (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي).

9 () راجع كتاب "الوفا في أخبار المصطفى لابن الجوزي 2/774و"البداية والنهاية" لابن كثير 5/231.

فالعصر النبوي – كما رأينا – هو أقرب عصور التاريخ الإسلامي إلى القيم المطلقة التي جاء بها الإسلام وعاشها المسلمون.

وما كان ذلك ليكون لو لم يكن الرسول ق حياً قائماً بين ظهراني أصحابه يأتيه "الوحي" من عند اللهِ – جَلَّ وعلا – قرآناً مبيناً لمعالم "المطلق البشري " فيما ينبغي أن يتصف به المؤمن من صفات، ويأتيه من أفعال.

فالمجتمع النبوي – بهذا الاعتبار – مجتمع موقوف على حدود " المطلق"، وموزون بموازينه، ومحكوم بأحكامه، وقائم على قواعده.. وأي فعل يأتيه "الحاكم" أو "المحكوم" قاصراً عن "المطلق" – مهما كانت درجة هذا القصور ضئيلة – سيحدث شقاً عظيماً في جسم المجتمع يؤدي به إلى ما لا يحمد عقباه، حتى لو كان هذا "القصور" المأتي، لا يشكل من مجموع "الكمال" المطلوب سوى جزء واحد من عشرة أجزاء منه .

فهذا العشر الهين ربما تسبب في هلاك الناس كما جاء في تحذيره ق لأصحابه في الحديث الشريف : (أنكم في زمان مَن ترك منكم عُشر ما أمر به هَلَك، ثم يأتي زمانٌ مَن عمل منهم بعشر ما أمر به نجا [10])

فإذا كان عصر "القيم المطلقة " الزاهر قد مضى وانقضى بانتقال الرسول ق إلى الرفيق الأعلى، إلاَّ أنَّ ظلاله وصوره بقيت تُظلُّ العصور التي تلته الواحد بعد الآخر بدرجات متفاوتة بحسب قرب العصر أو بعده

---

[10] () رواه الترمذي عن أبي هريرة ك(كشف الخفاء) للعجلوني. 1/217.

عن عصر الرسالة العظيم الذي ترك أعمق الأثر في ذاكرة الأمة وعقلها الباطن، واستطاع أن يشدّ إليه روح الأمة وضميرها بروابط قوية من الحرمة والإعجاب والتعظيم، حتى غدا – عصر الرسالة – ميزاناً حسَّاساً تزن به الأمة حكامها، وتحكم عليهم سلباً أو إيجاباً على قدر قربهم أو بعدهم عن روحه ومثله، وقد بلغ من حساسية المجتمع بعصر النبوة وقيمه في العقود الأولى التي تلته أن يخاطب الخليفة الراشد عمر بن الخطاب **ك** النّاَس من فوق المنبر قائلاً :

"يا معشر المسلمين ! ماذا تقولون لو ملتُ برأسي إلى الدنيا كذا (وميّل رأسه).

فقام إليه رجل فقال : أجل، كنا نقول بالسيف كذا (وأشار إلى القطع)!

فقال :إياي تعني بقولك ؟

قال : نعم ،إياك اعني بقولي.

فقال عمر : رحمك اللّٰه، الحمد للّٰه الذي جعل في رعيتي من إذا تعوجتُ قوّمني "[11]

هكذا، ليس بألسنتنا .. ولا بأي شيء آخر دون السيوف .. وإنما بسيوفنا .. ومن دون أية مقدمات.. وسنرى فيما بعد كيف استنطق الناس سيوفهم في تقويم الانحرافات.. بل أحياناً أقل الانحرافات شأناً.

---

[11] () أخبار عمر 422-علي وناجي الطنطاوي-دار الفكر-دمشق 1959.عن"الرياض النضرة في مناقب العشرة" للمحب الطبري 2/50.

وما ذلك إلا لأنّ جلّة من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، من المقربين إلى رسول الله ق والمرافقين له في حله وترحاله، وممَّنْ كانوا قد تربوا ونشأوا في حجر "النبوة" وعاشوا يقبسون من أنوارها ويلتمسون من آثارها وتعاليمها، أصبحوا – فيما بعد – من أشدّ الناس تعلقاً بعصر الرسالة، وأكثرهم تشبثاً به وأعظمهم رغبةً في الإبقاء على روحه حيّاً بينهم، حتى أنهم وجدوا في تعطيل هذا العشر من "العدل والحق " أحياناً الذي أشار إليه الرسول ق سبباً كافياً لامتشاق السيوف وإهدار الدماء.

وهكذا.. افتتح دم الشهيد عثمان بن عفان ك المراق على صفحات القرآن عصر المآسي الإسلامية بكل معاناتها وآلامها.

فقد ظلَّ هذا الدم المغدور يسري في عروق التاريخ الإسلامي صارخاً ومستثيراً أحداثاً متتابعة من الهول عبر واقعتي "الجمل" و"صفين" وكل الوقائع الأخرى التي احتكم فيها المسلمون إلى سيوفهم.

ويمضي هذا الدم في طريقه مصعداً في شعاب المأساة حتى يلتقيه فوق قمتها دم زاك آخر هو دم الشهيد الحسين بن علي ك..فيعتنق دماهما ويمضيان معاً في جلال حزين ليؤشرا معالم طريق "المطلق الإسلامي" كما ينبغي أن يكون للحاكم والمحكوم.

***

و"النورسي" رحمه الله – يشير إلى الأحداث المأساوية الدامية في التاريخ الإسلامي مبيناً أسبابها، بعد أن يورد سؤال السائل الذي كان قد سأله عنها فيقول :

[مضمون سؤالكم الثاني :

ما حقيقة الوقائع التي دبّت في صفوف المسلمين في عهد سيدنا علي **ك**؟ وماذا نسمي أولئك الذين ماتوا وقتلوا فيها؟

الجواب:

إن "معركة الجمل" التي دارت رحاها بين سيدنا علي **ك** وجماعته من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، إنما هي معركة – في حقيقة أمرها- بين العدالة المحضة (كما رسمها عهد الرسالة)، والعدالة النسبية (كما فرضها واقع الحال)].

وكلا الجانبين يرى أنه يمثل مطلق العدالة والحق، ويتهم الآخر بالقصور عنهما، فكان وقوع الحرب بينهما أمراً لا مفر منه.

[لقد جعل سيدنا علي رضي الله عنه، العدالة المحضة أساساً لسياسته في إدارة دفة الحكم. وسار بمقتضاها على وفق اجتهاده وبمثل ما كان الشيخان يسيران عليه من قبله. أما معارضوه فقد قالوا:

إن صفاء القلوب وطهارة النفوس في عهد الشيخين كانا ملائمين وممهّدين لكي تنشر العدالة المحضة سلطانها على المجتمع، الاّ أن دخول أقوام متباينة الطبائع والاتجاهات وهم على ضعف الإسلام بمرور الزمن، في هذا المجتمع أدّى إلى وضع عوائق مهمة إزاء الرغبة في تطبيق

العدالة المحضة (وهم على ما هم عليه من ضعف الإيمان وقلة الخبرة بآفاق الإسلام وعدالته المطلقة) فغدا تطبيقها صعباً، لذا فقد اجتهدوا على أساس بالعدالة النسبية التي هي اختيار لأهون الشرين.

ولأن المناقشة حول هذين النوعين من الاجتهاد آلت إلى ميدان السياسة، فقد نشبت الحرب بين الطرفين، وحيث إن كل طرف – في كل الأحداث والوقائع – قد توصل إلى هذا الرأي واستند إليه في حكمه من باب الاجتهاد ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى ومصلحة الإسلام ولم تتولد الحرب إلاّ عن اجتهادٍ خالص لله، فيصح القول : بان القاتل والمقتول كلاهما من أهل الجنة، وكلاهما مأجوران مثابان رغم ما تولد عن اجتهاد المعارضين من حرب دامية، ورغم معرفتنا بان اجتهاد الإمام علي **ك** كان صائباً، وان اجتهاد مخالفيه مجانب للصواب.

فهؤلاء المخالفون ليسوا أهلاً للعقاب الأخروي، إذ المجتهد لله إذا أصاب فله أجران، وان أخطأ فله أجر واحد، أي أنه ينال ثواب بذله الجهد في الاجتهاد، وهو نوع من العبادة، أي هو معذور بخطئه].[12]

***

[فان قلتَ: لمَ لِمْ يوفق الأمام علي **ك** بمثل ما وفق أسلافه في إدارة دفة الخلافة، رغم اتصافه – من هذه الناحية – بقابليات فائقة، وذكاء خارق، ولياقة تامة جديرة بمنصب الخلافة؟

الجواب :

---

[12]() المكتوبات ص.66

إن الإمام علياً كان حرياً ومؤهلاً للقيام بمهمات جسام تفوق أهمية السياسة والحكم، إذ لو كان التوفيق تاماً له في السياسة والحكم لما كان يحرز لقب "سيد الأولياء" بجدارة تامة، ذلك المقام المعنوي الذي هو أهل له بحق. فظفر بسلطنة معنوية وبحكم معنوي أرقى بكثير من خلافة سياسية ظاهرية. حيث اصبح بمثابة أستاذ الجميع، وغدا حكمه المعنوي سارياً وماضياً إلى يوم القيامة].[13]

أي أن سلطان الإمام علي **ك**، واستحواذه على القلوب والأرواح. وكونه ضمير الأمة وعقلها النابه الذي تستفتيه الأمة فيما يعرض لها من شؤون، هو أعظم بكثير من سلطانه السياسي .

فعدم توفيقه في السياسة والحكم أمر قدري مقصود، عوّضه عنه القدر بالحكم على القلوب، فنال بجداره لقب "سيد الأولياء" ،ذلك المقام الرفيع الذي فطر عليه ونشأ في حجر النبوة من أجله، فغدا أستاذ الجميع، وغدا حكمه المعنوي سارياً وماضياً إلى يوم القيامة].

***

[وإذا قيل : لِمَ لمْ يوفق سيدنا الحسين **ك** في مقاومته الأمويين رغم أنه كان على حق وصواب؟ وكيف سمحت " الرحمة الإلهية" أن تكون عاقبته وآل بيته فاجعة أليمة؟

الجواب :

---

[13]() المكتوبات ص.67

إذا استثنينا المقربين من سيدنا الحسين ك، نجد أن الأقوام المختلفة الذين التحقوا بهم هم ممن أُصيب غرورهم القومي بجروح بيد العرب المسلمين، فهم يضمرون ثأراً تجاههم، مما كّدر صفاء النية ونقاءها التي كان يتحلى بها مسلك الحسين ومن معه، وأدّى تعكُّر ذلك الصفاء وخفوت سطوع ذلك النهج القويم إلى تقهقرهم أمام أولئك].

أي أن النية الخالصة لله التي كان يحملها الحسين ك في حركته ربما لم تكن بالدرجة نفسها من النقاء والصفاء عند بعض الذين استلوا سيوفهم ووقفوا إلى جانبه، فأحدث ذلك ثغرةً في جدار "النية الصلبة "، استطاع معارضوه النفاذ منها، مما سبب انكسارهم وهزيمتهم.

***

نرجع فنقول تعقيباً على كلام "النورسي" آنف الذكر :

صحيح إن استشهاد "الحسين" ﷺ.. دون هدفه يمثل انتكاسة خطيرة لمثل المطلق وقيمه التي كان قد تربى عليها في مدرسة النبوة، إلاّ أنه يشكل – من جانب آخر – انتصاراً له، حيث غدا رمز "المطلق الإسلامي " ورمز الكفاح من أجله على مدى التاريخ، بينما كان الانكسار والهزيمة من نصيب خصومه – في انتصارهم الظاهر – لأنه كان سبباً في إثارة مشاعر السخط عليهم مدة حكمهم.

وعليه فإن "الحسن" و" الحسين " رضي الله عنهما ونسلهما – كما يقول " النورسي " :

"قد حازوا بذلك سلطنة معنوية عظيمة دائمة متواصلة، فصاروا مرجعاً مهماً لكل أرباب القلوب وأصحاب الولاية والطامحين إلى الحق والعدل.

فإنْ هم خسروا " سلطان الحق " الذي كانوا يريدون أقامته على أرض المسلمين إلا أنهم ربحوا – في نظر الأمة – المنزلة الرفيعة، والمثال السامي الذي يقاس عليه عدل كل سلطان على مدى الأزمان .. وهذا هو الانتصار الذي ما بعده انتصار.."[14]

[14] () هذا مجمل المعنى لما يقرره النورسي وتفصيله في(المكتوب الخامس عشر) ص.69 من المكتوبات دار سوزلر- استانبول.

"الحدث" بين الإنسان والقدر

بديهي أننا نُحَمِّلُ "الإنسان" فوق طاقته إذا نحن نسبنا إليه وحده صنع "الحدث" وتشكيل " التاريخ ".

صحيح أنَّ "الإنسان" حر الإرادة والاختيار، وأنه الفاعل المباشر للحدث إلاّ أن "مادة الحدث " وخامته الأولى التي ينسج منها نسيج حدثه هي أسبق في الوجود من إرادته، بل هي التي تنشئ الارادات في الإنسان، وتغريه بتشكيل "الفعل التاريخي" من خلالها، وصياغته من عناصرها الأولية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن "إرادة الإنسان" ليست هي الإرادة الوحيدة في هذا العالم المتفردة في تصريف "الأحداث" كما تشاء وتهوى .

وعليه فما يريده الإنسان ليس بالضرورة حتمي التحقيق.

فإرادة الإنسان – أي إنسان – لكي تَنْفُذَ من دور القوة الكامنة في النفس، إلى دور "الفعل" المتشكل واقعاً يتعين عليها أن تَنْفُذَ بجلدها – أولاً – من بين زحمة إرادات البشر المتصارعة، وألاّ تصطدم – ثانياً – بإرادة أكبر هي إرادة الكون المتجلية في نواميسه ودساتيره، وألاّ تناكف قوة أعظم هي قوة "القدر" الذي يطوي الوجود جميعاً في قبضة يده .

وآمل ألاّ يسبق إلى الذهن مما قلناه آنفاً بأننا نشير إلى"جبرية قدرية " يخضع لها العالم. ويقف "الفعل الإرادي" للإنسان مشلولاً إزاءها، فهذا مالا نعنيه مطلقاً.

وإنما الذي نذهب إليه في هذه المسألة بالغة الحساسية، ونرجو ألا يكون قد جانبنا الصواب فيها.. هو أن " القدر" يقوم بين البشر مقام المعلم الحكيم – ولا مشاحة في المثال – بين تلاميذه، فهو لا يعطل عقولهم ولا يحجر عليها ولكنه يوجّه مساراتها من بعيد، ويصحح أخطاءها ويلهمها الصواب من وراء ستار، ولا يشل إرادتهم ولكنه يسمح بمرور بعضها – لحكمة خافية عنّا – ويحول دون مرور الأخرى، ولا ينساق وراء أهوائهم ونزواتهم بل يشير لهم بعصا التأديب، وقد يوجّه لهم لطمات الرحمة إذا اقتضت الضرورة ذلك، لكي ينتبهوا ويرعووا، وهو بعد ذلك – أي القدر – كابح عظيم لطغيان الهوى، وجنون العدوانية والتسلط لدى الدول والشعوب، بما يراه مناسباً من وسائل تختفي بين الأسباب والمسبَّبات.

فلو اتبع "القدر" أهواء كل ظالم وطاغية وأفسح لها مجال التحقق إلى آخر مداها لفسدت السماوات والأرض، وعمَّت الفوضى، وخربت الدنيا وتهاوى الرباط الأخلاقي الذي يشدُّ إليه العالم، ويتطلع للاحتماء به كل ضعيف وصغير من الدول والشعوب.

فمن حسن حظ البشرية أن يقف لها "القدر " بالمرصاد، ويعيدها إلى شيء من الحق كلما أوغلت في باطلها، ويلجمها بشيء من العقل

كلما جنَّ جنونها،ويسوقها إلى شيء من الحكمة كلما جهلت واستخفها البطر والأشر.

وغير خاف إن بعض الدروس التي يحاضر بها "القدر" الشعوب، قد تبلغ مبلغاً عظيماً من القوة والعنف في ظاهر أمرها، وربما كلفتها حروباً دامية، وفتناً رهيبة، ودماءً غزيرةً، وقد تضرب أوطانها الزلازل، ويغمرها الطوفان، وتنتشر فيها الأوبئة والأوجاع، ويشيع فيها القحط والجفاف، إلى آخر ما هنالك من كوارث تأتي تحت أستار من الأسباب المادية الظاهرة، ولكنها تخفي وراءها حكمة قدرية قد تنتبه إليها الشعوب المبتلاة وتفيد منها في مستقبل أيامها، وقد لا تنتبه إليها، ولكنها موجودة على كل حال لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

فالذي نخلص إليه مما تقدم هو : أن" الحدث" الذي يأتي به "الإنسان" ليفسح له "التاريخ" مكاناً بين أحداثه، قد يولد ميتاً ما لم ينفخ "القدر" فيه الروح.. وهو لا ينفخ فيه الروح إلا لحكمة مهما خفيت عنَّا في حينها، إلا أنها تخدم – على المدى الواسع البعيد – روح التاريخ الإنساني، ومثله العليا في الارتقاء بالبشرية نحو آفاق العدل والخير والجمال.

و"النورسي" يشير إلى هذه الحقيقة إشارة مقتضبة، ويضع بكلمات قليلة قاعدة عظيمة من كليات التاريخ يمكن أن تنضوي تحتها جزئيات تاريخية كثيرة، فضلاً عن أننا نستطيع – على ضوء هذه القاعدة – رؤية أصفى وأوضح لكثير من الأحداث التي قد تبدو مستعصية على الفهم

والتفسير، واليك هذه القاعدة كما يقول رَحِمَهُ الله : [انه قاعدة أساس في رسائل النور: إن في كل حادثة يد الإنسان ويد القدر معاً، ولكن الإنسان يظلم حيث ينظر إلى السبب الظاهري، بينما القدر يعدل لأنه يرى السبب الخفي لتلك المصيبة].[15]

وهذه قاعدة أساس تدور على محورها "رسائل النور " ويُنْظَرُ إلى مسائل "التاريخ" كافة على ضوئها.

[وقد ثبت لنا صدق هذه القاعدة من خلال التجارب المتكررة، فإن كثيراً من المصائب التي نزلت ببعض من طلابنا، لمسنا فيها العناية الإلهية، وأبصرنا من خلالها وجه الرحمة الواسعة][16].

---

15 () الملاحق – ملحق قسطموني ص 197

16 () المصدر نفسه.

التاريخ.. والواجب

انتهينا في خاتمة المقطع السابق إلى رأي "النورسي" في "الحدث" التاريخي، حيث خلص إلى القول بانّ "يد الإنسان" و"يد القدر " تعملان سويةً في بناء "الحدث" ومن ثمة تصعيده فوق قمّة الأحداث، ثم دفعه هناك ليأخذ مكانه وحجمه المناسبين في تاريخ الأمة المعنية.

وإذا كانت مقاصد "الإنسان" وغاياته من "الحدث" ظاهرة بينة – في الأعم الأغلب – غير أن مقاصد "القدر" وغاياته من وراء عمله تظلُّ غامضة وغير مفهومة لدينا، وقد لا يتهيأ لنا إدراك بعض هذه المقاصد والغايات إلاّ بعد انقضاء زمن بعيد على وقوع الحدث.

ومعلوم أن دوافع "بطل الحدث" إلى ممارسة " الفعل التاريخي " تختلف باختلاف العقائد والمبادئ التي يعتقدها ويؤمن بها .

ومع ذلك فإنَّ قاسماً مشتركاً أعظم يطوي تحت جناحيه جميع "الأحداث التاريخية "- بغض النظر عن حكمنا الأخلاقي عليها – وهذا القاسم المشترك الأعظم إنما هو حافز الواجب كما يراه "البطل" المعني

بمنظار معتقداته، وكما يحسُّ به في لحظة من التوتر الروحي والقلق النفسي إزاء جملة من تحديات المرحلة الزمنية التي يعاصرها ويعيش تردياتها وانهياراتها.

وهكذا تغدو إلهامات : "الواجب" وحوافزه عامل دفع البطل إلى قلب "الحدث" لتحريكه في الاتجاه الذي يؤمن به ويعتقده.

ولئن كانت الحضارات هي روح التاريخ البشري، وعصارة حياته،فإنّ "الواجب" – كما رأينا – هو روح الحضارات ونسغ حياتها الذي يغذو شجرتها بأسباب النّماء والبقاء.

فلن تقوم لأمة قائمة حضارية مرموقة ما لم يشمل "الواجب" محور حياتها وأساس وجودها، ومحرك نشاطها ومضطربها.

وما الدين – الذي هو منبع كل حضارات الإنسان – إلا مدرسة تتعلم فيها الشعوب قدسية "الواجب" ،وتعتاد العيش به وله، وتمارس في يومها وليلها المران عليه.

فالواجب من أجل الواجب – صغيراً كان هذا الواجب أو كبيراً ومجرداً من أية منافع مادية أو معنوية – هو واحد من مقاصد "الدين " الذي يريدنا أن نسمو إليه، ونرتقي بإرادتنا نحوه.

فالواجبات أو الفرائض، تلزم المسلم حسب تسلسل أهميتها.. وأسبق هذه الواجبات وأعظمها في الأهمية، إنما هو معرفة "الواجب الوجود" سبحانه وتعالى، ثم تليها متتابعةً الواجبات والفرائض الأخرى.

ولأمر ما تواضع علماء الكلام والمناطقة المسلمون على اسم " الواجب الوجود"، الذي يُوجب الوجود، فلا وجودَ إلا منه ،فهو علّية العلل، ولا علة له، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

بديهي أن "الموجودات " جميعها "ممكنة" و"محدثة" أي معلولة – وان علة إمكانها وحدوثها إنما هو "الواجب الوجود".

ولا يخفى أن "الأحداث التاريخية " معلولة أيضاً وعلة انبعاثها على مسرح الأحداث إنما هو "الواجب" الذي يراه بطل الحدث ويؤمن به ويحسُّ إزاءه بالالتزام والمسؤولية التاريخية، فهو إذن المحرك الأساس لإرادات "الفعل التاريخي" فيه، والدافع الأول لتشكيله واقعاً في حياة أمته وحضارته.

فالواجب من أجل "الواجب " هو واحد من قمم الارتقاء الإيماني الذي رسمه الإسلام للمسلم، ومَعْلَمٌ من معالم "المطلق" الذي يستحث المسلمين ويحفزهم لتجربة النهوض إليه والسعي من أجله.

ومَنْ يستعرض التاريخ يجد أن عظماءه وأبطاله في شتى مجالات العظمة ومناحي البطولة، إنما هم أولئك الذين عاشوا للواجب من أجل "الواجب " دون أن ينظروا إلى جلب منفعة أو دفع ضرر، وربما دفع الكثير منهم حياته رخيصةً في سبيل هذا الواجب الذي كرسوا وجودهم كله له.

فصرخة ملتاعة كصرخة "رابعة العدوية "– وأمثالها كثير من عمالقة الإيمان – في جوف الليل : "إلهي : ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً

في جنتك، وإنما عبدتك لأنك أهلٌ لذاك " ما هي إلاّ محاولة للتحقق بالواجب من أجل الواجب ليس إلاّ. وفي حديث الرسول **ق** : "إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألاّ تقوم حتى يغرسها فله بذلك أجر"[17] أي فليؤد واجبه ولا ينكص على عقبيه متعللاً بقيام القيامة وبلا جدوى عمله .

وكم من رجل قضى نحبه وهو يؤدي واجبه حتى آخر نفس من أنفاسه، دون أن يثنيه عن ذلك إحساسه بقرب أجله، كذلك النحوي الكبير الذي يهمس متحسراً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : أموت وفي نفسي شيء من "حتى" أي شيء من إعرابات "حتى" التي لم ينته فيها إلى رأي قاطع .

***

فلا أرى وصفاً غير وصف "رجل الواجب الصعب " أكثر ملاءمةً "للنورسي " وأشد انطباقا عليه، وأعظم التصاقاً به، وأسرع وصولاً إلى معرفته وسبر غوره، وفهم أعماله الفكرية والإيمانية .

فهو بحق "رجل الواجب " الذي عاش له وكرس فكره ووجوده من أجله، وكان يرى في أداء "الواجب الإيماني " غايةً ما بعدها غاية، ولم يكن ليفكر بما يمكن أن يأتي به هذا "الواجب " من مردودات، بل ترك أمر ذلك للقدر .

---

[17] () ذكره علي بن العزيز في المنتخب باسناد حسن عن انس **ك**(عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني–باب الحرث والزراعة).ورواه الإمام أحمد في مسنده 3/184,191والبخاري في الأدب المفرد,انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي .3/30

وها نحن نستعرض – فيما يأتي – رأيه بهذا الخصوص كما جاء في إحدى توجيهاته إلى طلبته حيث يقول رحمه الله :

[إخواني : إن وظيفتنا هي خدمة الإيمان والقرآن الكريم بإخلاص تام، أما توفيقنا ونجاحنا في العمل، وإقبال الناس إلينا، وصدّ المعارضين عنا، فهو موكول إلى الله سبحانه، فنحن لا نتدخل في هذه الأمور وحتى لو غُلبنا فلا ينقصنا هذا شيئاً من قوتنا المعنوية ولا يقعدنا عن خدمتنا، فعلينا بالثقة والاطمئنان والقناعة انطلاقاً من هذه النقطة، وموقفنا هذا يشبه موقف خوارزم شاه – أحد أبطال الإسلام الذي انتصر على جيش جنكيز خان انتصارات عديدة – فقد كان يوماً يتقدم جيشه إلى الحرب فخاطبه وزراؤه ومقربوه :

سيظهرك الله على عدوك، وستنتصر عليه !

فأجابهم :

إنّ ما عليَّ هو الجهاد في سبيل الله إتباعا لأمره سبحانه، ولا حقَّ لي فيما لم أكلف به من شؤونه، فالنصر والهزيمة إنما هو من تقديره هو سبحانه.

وأنا أقول مقتدياً بذلك البطل :

إن وظيفتي هي خدمة الإيمان، أما قبول الناس للإيمان والرضا به، فهذا أمر موكول إلى الله .

فأنا عليَّ أن أؤدي ما عليَّ من واجب، ولا أتدخل فيما هو من شؤونه سبحانه "[18]

[18] () ذكريات عن سعيد النورسي ص 87 ترجمة: أسيد إحسان قاسم الصالحي- مطبعة الحوادث-بغداد-1986.

عرفنا من مضمون المقطع السابق أنَّ" الحدث التاريخي " الذي يأتي به "الإنسان " من منطلق الرفض لواقع معين – أياً كان – إنما هو وليد " الواجب " الذي يحس به ويحفزه لاتخاذ موقف جديد منه، وفْق ما تمليه عليه مبادئه ومعتقداته.

والإنسان المسلم لابدّ أن يكون على وعي ذكي، وفهم دقيق لمجريات الواجبات التي تترى أمامه، وتحاصر وجوده من كل جانب .. فما لم يصنفها حسب أولويات أهميتها، وما لم يبادر فوراً إلى أداء أقربها إلى دائرة ذاته، وألصقها بمصيره الأخروي، فإنه سيعاني الإرباك في زحمة الواجبات، فلا يدري من أين يبدأ وإلى أين ينتهي .

فالواجبات أكثر بكثير من الأوقات، وغالباً ما ينقضي عمر الإنسان في اهتمامات لا أول لها ولا آخر، قد لا تشكل – عند الفحص والتدقيق – أكثر من سراب يظنه الظمآن ماء، وما هو من الماء في شيء قليل أو كثير.

إن إيماننا نحن المسلمين – ومعنا كل المؤمنين من بقية الأديان الأخرى – بحياة أخرى نفضي إليها بعد موتنا، وهي حياة أبدية خالدة لا

نفاد لها، ولا حدَّ لامتدادها، أمر في غاية الخطورة، وهو مسألة المسائل، وكبرى القضايا، والمحور الأساس الذي ينبغي أن تدور عليه أفكار المؤمن وسلوكياته وأخلاقياته، وما يأتيه أو يدعه من أفعال.

فلو قدر لنا أن نحيا على هذه الأرض مليوناً من السنين السعيدة الخالية من المنغصات والآلام، فإن "هذه المليون" ليست أكثر من قطرة تافهة في بحر الأبدية التي تنتظرنا هناك..

فعليه فكم نكون مغفلين وسذّجاً وبعيدين عن أدنى درجة من المعقولية إن لم نوجّه اهتمامنا بالدرجة الأولى والأساس لكسب هذه الحياة، والحصول عليها بكل ثمن، واستنفاد كل دقيقة من أعمارنا المحدودة على هذه الأرض من أجل أن نشتري لنا فيها موضع قدم؟

فالواجب الأول الذي ينبغي أن يستأثر باهتماماتنا، وهو واجبنا نحن نحو خالقنا – صاحب الأبدية – وترسيخ الإيمان به، ثم استكشاف الوسائل التي يمكن بوساطتها أن نجلي هذا الإيمان للغافلين عنه من بني البشر، وندعمه ونقويه في النفوس بما يتيسر لنا من وسائل الدعوة والتبليغ، ثم تأتي الواجبات الأخرى تباعاً المهم تلو الأهم.

والذي نخشاه أن يسبق إلى ذهن أحد من القراء بأننا بهذا الذي نقوله وندعو له سلبيون وانعزاليون، ومنكفؤن على أنفسنا، ومنطوون على ذواتنا، لا يهمنا ما يحدث وراء جدران الذات من أحداث، ولا يشغلنا ما تضطرب به كرتنا الأرضية من شؤون وشجون.

فليس هذا الذي نريده أو نقصده من كلامنا آنف الذكر، فكيف يستطيع إنسان ما في هذا العصر – مهما أغلق على نفسه من أبواب، ووضع على ذاته من أقفال – أن ينجو من التأثر بأحداث الكرة الأرضية التي أصبحت – بما تملكهُ الحضارة من وسائط اختصار الزمان والمكان – مدينة صغيرة تهتز جميع أرجائها لأي حدث يقع فيها في أية زاوية من زواياها؟

وكل الذي نريده إنما هو التذكير بأن واجب المؤمن الأول والأساس – في – عصر نضوب الإيمان هذا – هو خدمة "الإيمان"، وبعث جذوته، وإشعال مصابيحه في نفوس الناس، فلا ينبغي أن يفرط بهذا الواجب، أو ينشغل بغيره حتى لو أعطي كنوز الأرض، وسُلِّمَ قياد العالم، وليضع نصب عينه دائماً قول الرسولﷺ :

"يا عم واللّه لو وَضعوا الشمس في يميني والقمَر في يساري على إن اترك هذا الأمر حتى يُظهره اللّٰه أو أهلك فيه، ما تركته" [19] ثم إن الإسهام في "أحداث العالم" وفق متطلبات "الإيمان"، وصياغة تاريخه بمعطيات فكره، أمر لن يتيسر بالهزال الروحي الذي تعاني منه البشرية اليوم..فقد سقط العالم من زمان بعيد بأيدي "الدنيويين" الذين تشكل "الدنيا" مبلغ علمهم، وغاية جهدهم، وهم غير متحمسين أصلاً- إنْ لم يكونوا رافضين بالأساس – لأي عالم آخر يقع وراء عالمنا هذا، كما كان

---

[19] () السيرة النبوية لابن هشام:1/285(تحقيق السقا والابياري والشلبي) مطبعة مصطفى البابلي 1936.

قد بشّر به المستكشفون الأوائل من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

لذا – والأمر كما وصفنا – فإنَّ منافسة هؤلاء الدنيويين على دنياهم، وأخذ المبادرة من أيديهم – بهذا الهزال الإيماني المخيف – قضية محكوم عليها بالإخفاق، وغاية ما يستطاع عمله هو احتلال مكان هامشي باهت على مجمل أحداث العالم، لا يقدم أو يؤخر في مسيرة التأريخ العام .

فما لم تُفعَمْ الأرض من جديد بإيمان شبيه بإيمان أبي بكر وعمر وعلي والحسين وخالد وسعد وطارق وصلاح الدين والغزالي والجيلاني وغيرهم من أفذاذ الروح والعقيدة رضي الله عنهم جميعاً، فلن يتهيأ للإيمان أن يقود التاريخ من جديد نحو غاياته السامية، وأهدافه الجميلة .

ولن يرى العالم إيمانا كهذا ما لم يمتلك "الإنسان المعاصر" حسَّاً بالآخرة – إن لم يكن أعلا وأعظم من حِسِّهِ بالدنيا، فهو – على الأقل – يساويه ويضاهيه، وما لم يمتلك بصيرة يرى من خلالها شواطئ الأبدية وهي تستقبل أمواج التاريخ البشري بخيره وشره .. عند ذاك يتهيأ له قياد العالم، والإمساك بناصية التاريخ.

فإشغال "المؤمن" نفسه بمتابعة أحداث العالم، والتعليق عليها، والثرثرة حولها طوال يومه إلى حد نسيانه قضيته الأساس و واجبه الأول في إرساء قواعد "الإيمان" وبناء صرحه في النفوس، عبث لا طائل من ورائه، وربما ظنَّ المسكين أنه يفعل شيئاً مفيداً بهذا التلقي السلبي

للأحداث، بينما هو – في الحقيقة – لا يفعل أي شيء سوى إضاعة وقته الثمين فيما لا يعود على "الإيمان" بالفائدة المبتغاة.

وقد سئل " النورسي " رحمه اللّٰه – عن السبب الذي لا يجعله يتابع أخبار "الحرب العالمية الثانية" يومياً وتفصيلياً كما هو شأن علماء الدين في ذلك الوقت الذين قد يهملون واجباتهم الدينية من أجل الإصغاء ساعات طويلة إلى ما تنقله المحطات الإذاعية من أخبار الحرب عبرَ المذياع، فكان جوابه كالآتي :

[إن رأس مال العمر قليل، ورحلة العمر هنا قصيرة، بينما الواجبات الضرورية والمهمات التي كُلّفنا القيام بها كثيرة، وهذه الواجبات هي كالدوائر المتداخلة المتحدة المركز حول الإنسان:

فابتداء من دائرة القلب، والمعدة، والجسد ،والبيت، والمحلة، والمدينة، والبلاد والكرة الأرضية، والبشرية، وانتهاء إلى دائرة الأحياء قاطبة والعالم أجمع كلها دوائر متداخلة بعضها في البعض الآخر، فكل إنسان له نوع من الوظيفة في كل دائرة من تلك الدوائر، ولكن أعظم الواجبات وأهمها، بل أدومها بالنسبة له هي في أصغر تلك الدوائر وأقربها إليه، بينما أصغر الواجبات وأقلها شأناً ودواماً هي في أعظم تلك الدوائر وأبعدها عنه.

فقياساً على هذا :

يمكن أن تتناسب الوظائف والواجبات تناسباً عكسياً مع سعة الدائرة، أي كلما صغرت الدائرة – وقربت- عَظمت الوظيفة، وكلما

كَبُرت الدائرة – وبَعُدَت – قلت أهمية الوظيفة. ولكن لما كانت الدائرة العظمى فاتنة جذابة، فهي تشغل الإنسان بأمور غير ضرورية له ،وتصرف فكره إلى أعمال لا تعنيه بشيء، حتى تجعله يهمل واجباته الضرورية في الدائرة الصغيرة القريبة منه، فيهدر – عندئذ – رأس مال عمره، ويضيع حياته سدى].[20]

ثم يستطرد فيقول :

[إن أمام كل إنسان – ولاسيما المسلم – مسألة مهمة، وحادثة خطيرة هي أعظم من الصراع الدائر بين الدول الكبرى لأجل السيطرة على الكرة الأرضية..

تلك القضية هي :

أن يكسب الإنسان بالإيمان – أو يخسر من دونه – ملكاً عظيماً خالداً ومساكن طيبة في جنات عدن عرضها السماوات والأرض. فَمن لم يفز بشهادة الإيمان ولم يرعها حق رعايتها فسوف يضيّع حتماً تلك القضية ويخسرها، وذلك هو الخسران المبين..]

* * *

---

20 () الشعاعات ص. 252 – الشعاع الحادي عشر، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر للنشر، استانبول 1993.

وهذه الحركية التاريخية المطلقة التي أَشرنا إلى معالمها في صدر هذا الكتاب، تشكل في ذاكرة الأُمَّة بُبُعداً تاريخياً ضبابياً لا يُحَسُّ ولا يُلْمَسُ في حياتها المعيشية، الأمر الذي يجعلها تشعر وكأنها في غربة عنه لا تعرفه ولا يعرفها، وأنه لم يزد عن كونه شبحاً نورانياً ملائكياً وَمَضَ في تاريخها فترةً قصيرةً من الزمن ثم انطفأ وميضه إلى الأبد، ولا أمل في اشتعال جذوته من جديد. وعلى الرغم من سوداوية هذه النظرة وسلبيتها، إلاَّ أنها دليل على أن التوق إلى هذا "المطلق الإيماني" لازال يعمل عمله في عقلها الباطن.

إِنَّ أيَّ شعور بالغربة لدى الفرد أو الأُمَّة عن فترة زمنية مضيئة من تاريخه "أي الفرد" أو تاريخها "أي الأمة" هو أولى مراحل الاستنهاض ومراجعة الذات للبحث عن سبل التحقق بالمطلق الإسلامي المنشود من جديد.

فاغتراب المسلم المعاصر اليوم دليل صحوة وإنْ لم تكتمل بعدُ إلاَّ أنَّ فجرها الصادق لابُدَّ وأنْ يبزغ عاجلاً أم آجلاً – كما يقول النورسي – وهذا الاغتراب هو ما نحاول أن نعالجه في الفصل الثاني من هذا الكتاب والذي وضعنا له عنوان: (الاغتراب الروحي لدى المسلم المعاصر) واللّٰه تعالى من وراء القصد.

الفصل الثاني

الاغتراب الروحي
لدى المسلم المعاصر

(1)

لا أود أن اخدش حس التفاؤل والأمل في نفوسكم الكريمة، بحديثي عن غربة المسلم واغترابه الروحي في هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسوس على الدنيا في حين غرة من أهلها. ليهدم بمعاوله كل منارات الهدى، ويطمس على كل ما يمكن للجنس البشري أن يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير، فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين وسرّ استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة، وهو النور المسكوب من وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم. لذا أبادر فأقول: إن اغتراب المسلم وغربته ليسا دليل ضعف دائما، وليسا دليل رغبة بالانكفاء والانفصام عن عالمه المحيط به، بل هما – في كثير من الأحيان – علامة على الصحة والقوة، وآية على الائتلاف الحميم بينه وبين إيمانه وعقيدته. فكلما زادت غربة المسلم، وعمق اغترابه، كان ذلك إشارة إلى حياة إيمانية سليمة، إن كانت اليوم مستعصية على الفهم بعض الشيء، إلا أنها توشك غدا أن تصبح الروح الذي يحيي موات الإنسان، ويوقظ قلبه وينير عقله.

والغربة في روح المسلم وعقله، إنما هي نتاج مصارعته للتمزق والانشطار بين الوجوب والنفي، بين وجوده الإيماني وعدمية هذا الوجود، بين سلبيات الدنيا ولاشيئيتها وإيجابيات الآخرة ويقين حقيقتها، وهي ثمرة ذلك القلق الممض بين أن يكون أو ألا يكون، وهو قلق يخصب الفكر، ويغني الوجود، ويفتح منافذ الخيال والوجدان على حقيقة الإنسان وهو قمين بنفوس المتميزين من رجال العقيدة والإيمان.

(2)

وتظل هذه الغربة هاجس المسلم الدائم، وقدره وقضاءه. يلازمه ولا ينفك عنه مادام حيا يتنفس أنفاس الحياة فوق أديم هذه الأرض.. صحيح إنه يسكن الأرض ويدرج فوقها، إلا أنها ليست المحط الذي يمكن أن يحط عليها رحاله، ولا المكان الذي تنتهي إليه آماله، ولا الوطن الذي يملأ عليه خياله أو يحتوي عظمة روحه.. هذا الروح الذي لا تزن الأرض كلها إلى جانبه اكبر من ذرة هباء غبية، تعجز عن فهم أشواقه، وتضيق عن استيعاب ما يضطرم به فؤاده من توق وحنين إلى العالم الأخروي.. عالم المعرفة المطلق الذي تحيا فيه الحقائق خالصة من غير لبس ولا وهم..

إنه يمكن أن يملك الأرض، وان يعمرها، ويحكمها بالعدل، ويقيم فوقها شرع اللّٰه.. غير أنها تبقى ملك يمينه يأخذها إلى الأقوم والأحسن والأفضل، بينما يظل قلبه مغلقا دونها، فلا يخلد إليها، ولا يطمئن لها، بل يحس بالوحشة والخوف منها، لأنها وطن الموت والفناء والعدم، ففي كيانه وفي كل ذرة من دمه نزوع إلى عالم هو الوجود كلها، ووطن هو

الخلود كله وأرض هي الحياة كلها، لا يتهددها موت ولا يكتنفها زوال أو عدم.. إنه ذلك العالم القدسي الذي أُبعدَ عنه أبوه آدم عليه السلام بسبب عصيانه المعروف.. فالعصيان شر والشر موات وعدم، ومحال أن تستنبت بذرة الموت والعدم فوق أرض الحياة والوجود، لذا نزل بالأرض أم الموت والعدم، لأن شبيه الشيء منجذب إليه، فصارت الأرض دار غربته، ووطن وحشته، لا يسكن إليها ولا يطمئن بها، وقد أورث أبناءه من خاصية ذاته، مرارة الغربة، ولوعة الحنين إلى الموطن الأول، فذاكرة الإنسان الباطنة، وحافظة وجدانه تخفي في تلافيفها جذور ذلك الاغتراب الآدمي، وأصول ذلك النزوع إلى عالم الأب الأول.

ومما يثير الدهشة أن يغدو حرص آدم عليه السلام وزوجه على البقاء الدائم والخلود الأبدي – وهما في دار الخلود والبقاء – المنفذ الذي نفذ منه الشيطان إليهما بوسوسته: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) (الأعراف:20) مما يدل على أن الآدمية مفطورة على هذا التوق، وأن في أصل خلقة كل آدمي نزوعا عارما إلى البقاء والخلود، ففعلت وسوسته معهما فعلها، ودفعت بهما إلى اقتراف المعصية بأكلهما منها ففقدا بذلك سر الخلود، وسلبا إكسير الحياة، الذي قال الله تعالى فيه (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت:64).

(3)

إن ما يعتلج في نفوسنا من توق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا – اكبر من كل دليل وأعظمه – لان الإنسان – كما هو معلوم – لا يشتاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب، فنحن نحسه في تجليه على أرواحنا بأنواره وأندائه في لحظات صفاء الروح وفي أوقات استضاءة القلب بنور الله لذا فسيظل القلق الحاد يعتور "النفس الإنسانية" ويؤرق وجودها بسبب ذلك الإحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالاغتراب في هذا العالم، وهو حس عميق الغور في النفوس، لا يسهل الخلاص منه أو الانفكاك عنه، لأنه يشكل جانبا مهما من جوانب الوجدان البشري.

غير أن الشعور بالاغتراب الفكري والروحي، رغم ما يخلفه من آلام وأحزان، يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط لخلايا الفكر والروح. فالابداعات الفكرية الإيمانية مدينة إلى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر لم تتهيأ الأوطان والأزمان بعد لقبوله، والتواصل معه، إلا أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أن يأتي ذلك الزمان الذي يحسن الفهم عنهم والتلقي منهم. وما من أذن مهما بلغ بها الصمم إلا وهي جائعة إلى الكلمة الناضحة برحيق الروح، والندية بعسل القلب، حين يتفجر بها لسان صدق يريد أن يرأب بها ما أحدثه الناس في نفوسهم من صدوع، ويرمم ما خلفوه فيها من شروخ، ومهما قام بين المسلم وزمانه من سدود الغربة والاغتراب، وجدران الخلف والاختلاف، إلا أن

القلب المفعم بإيمانه، والعقل الزخار بفكره، والروح الجبار بقوته، قادر على تحطيم السدود، وخرق الحدود، والوصول إلى شغاف القلوب، ولباب الأرواح والعقول.

(4)

ورغم علمنا أن الحقيقة – أية حقيقة – قادرة على الدفاع عن نفسها، وشق طريقها في الحياة مهما كانت العوائق، إلا أننا – للأسف الشديد – قد نشكل بعض هذه العوائق من غير قصد منا.. فهناك مساحة شاسعة بين ما نطمح إليه، وبين الجهد الذي نقدمه في سبيله.. بين القمة الشامخة التي تنتصب فوقها حضارتنا وبين قزمية الأفكار التي نجعلها سلمنا للارتقاء إليها.. إننا في الحقيقة بنا حاجة إلى بُنَى فكرية شامخة تطول شموخ حضارتنا، وعقول إيمانية كبيرة شمولية جامعة تجمع الشتيت، وتقرب البعيد.. وسنكون سعداء غاية السعادة ونحن نقف إزاء عقل عميق يرفد عقولنا بجليل الأفكار، ويغني وجودنا بعظيم الآراء.. وسوف نكون اكثر سعادة ونحن نصغي إلى هتاف روح سام متجرد لله، يشحذ أرواحنا، ويرهف ضمائرنا، ويسكب فينا من روحه قوى حية تدفع بنا إلى التغيير والتجديد.. وهذا هو الرجل الذي سنمنحه الكثير من حبنا واحترامنا، لأنه إن كان عظيما من يستطيع تفجير طاقات المادة وتحويلها من صورة إلى أخرى، فان الأعظم منه من يستطيع تغيير العقول والنفوس من حال إلى حال.

(5)

غير انه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاءه الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعد عقلا فاعلا، انه في حالة استرخاء دائم، لم يعد ذلك العقل المستوفز المشدود اليقظ، والمستعد دوما لالتقاط إيماءات، واستلام إشارات الطبيعة، ولم يعد عقلا مغامرا يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها، فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تَعُد حياتنا الإيمانية وحدها مهددة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهددا بالشلل والجمود. إن دم إسلامنا الطيب الطهور يسري في عروقنا، ولكنه دم خامل هامد، به حاجة إلى عملية فصد لكي يتجدد ويستعيد حيويته ونشاطه، ولن يقدم على عملية الفصد هذه إلا واحد من مفكرينا، يمتشق قلمه، ويجعل منه مشرطا حادا يغوص عميقا في عقل المسلم وروحه، ليحرك سكونهما، ويستفز همودهما، وهذه هي السبيل التي لا مناص منها لكي تنشط عقولنا، وتتجدد قلوبنا وأرواحنا، وهذا المفكر آت لا أشك بمجيئه، لان زلزالا فكريا رهيبا يعصف اليوم بعقول مفكري هذه الأمة، ويوشك أن ينجلي عن منجم إيماني عظيم يعد المسلمين بكل نفيس وجديد من الأفكار، انه المفكر المنتظر، ذو العقل الموسوعي، والحس الحضاري، المتفتح على تجارب الحضارات، فيعرف منها وينكر، ويقبل منها ويرفض.

(6)

كانت "أوروبة" في إبان حضارتنا قد آنست نارا عظيمة في الشرق، فقالت لأهلها: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه:10). فلما جاءتها قبست من نورها أقباسا، وذهبت بهذه الأقباس فأنارت بها عقول أذكياء أبنائها فإذا بهذه القبسة الحضارية تنمو وتكبر، وتبلغ من النضج ما يشاء الله لها أن تبلغ، ثم تعود إلينا من أبوابنا المشرعة، وتتعرض لنا بسحرها ومفاتنها، فإذا بنا نعرف منها وننكر، فهي قريبة إلى نفوسنا في بعض جوانبها وغريبة بعيدة عنا في بعضها الآخر.. نعرف منها روحها المغامر الطلعة، لأنه روحنا المفقود، ونعرف منها شغفها بالمجهول، وشوقها إلى كشف الأستار عن المعارف والعلوم لأنه شغفنا وشوقنا الموءود..

ونعرف منها علومها في الحياة والفلك والطب والنبات والحيوان، لان جذور هذه العلوم ممتدة في عقول الأفذاذ من علماء حضارتنا الماضين، ولكننا ننكر منها عقلها المغرور الجحود، وقلبها المتفسق، وجسدها الذي يغلي بالحسيات.. فهذه جوانب منها ليست منا، ولسنا منها، فهي غريبة عنا، ونحن غرباء عنها.

(7)

فمن المعلوم أن "الدين" هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجرها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها، وعلا ضحاها، ودلفت إلى

ظهيرة عمرها، جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثنا يتعبد له الناس من دون اللّٰهِ تعالى.. ثم تمضي في سيرها حتى تميل شمسها نحو الزوال ثم الغروب، فإذا بالعقل يتخلى عن عرشه ويتركه للحس ليتربع فوقه ويصبح هذا الحس سيد العقل وسلطانه بعد أن كان خادما له، ولا يعني هذا التقسيم الاعتباري لأدوار الحضارات أن هناك حواجز وفواصل ظاهرة وحادة بين دور ودور. فقد تتداخل الأدوار بعضها ببعض غير أن طابعاً عاماً يظل يميز الأدوار ويدفعها بشارته ويعطي كل جزء زمني منها صفته الغالبة عليه. والدور الحسي الذي يطغى اليوم على حضارة الغرب. قد فجر حسيات الإنسان إلى آخر مداها وطاقاتها، وفجر مع ذلك حس الأرض والسماء، وأثار خفايا الأرض بترابها ومائها وهوائها، فإذا بها تتزلزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنيته الحسية الباردة والمفتقرة إلى دفء الروح وشفافية الدين والإيمان. ولعل ثمار هذه الحسية ترجع في جذورها إلى ذلك التصور الحسي للألوهية والربوبية في العقيدة التي يدين بها أبناؤها.

(8)

أما الإسلام، أو بالأحرى حضارة الإسلام، فهي وحدة واحدة، تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها، فالروح والعقل والحس يتداخل بعضها في بعض، وتمشي جميعها جنبا إلى جنب في جميع مراحل تطورها، فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا، والمسؤولية في الآخرة، فحضارة هذا شأنها وإن غابت

عن حس المسلم، ولم يعد يتلمس وجودها في واقع حياته إلا أنها حاضرة قائمة في عقله وروحه، شاخصة في خياله وذاكرته، فسماء ذاته ما أقفرت يوما من خفقات نجومها، وومضات كواكبها ورغم انه يعاني اليتم، وكوالح الاغتراب، إلا أنه سيبقى متشبثا بها، متعلقا بأمراسها، وأبدا لن يشد للرحيل عنها الرحال، لأنها تمتزج بأجزاء نفسه، وتجري في مجاري روحه.

(9)

إن قوة الفكر الذي تحتاجه هذه الحضارة لتنهض من جديد قمين بعقول عظماء الرجال ممن عانوا الاغتراب الفكري ووقفوا على مشارف الخطر المحدق بها من خلال البنى الفكرية التقليدية المكرورة، والتي فقدت وهجها وحرارة تأثيرها. فظهور هذا الفكر بين ظهرانينا هو منعطف تاريخي مهم في حياة الإسلام والمسلمين والسعي إليه فرض عين على كل صاحب قلم يحرص على وجودها كما يحرص على ماء عينه وإذا كنا نصر على أن يكون للفكر الإسلامي مكان مرموق في عالم اليوم، فلابد أن ينجم من بين فحول مفكرينا فكر رجولي جديد يتسم بالأصالة والقوة والحيوية، ليغزو كيان المسلم المعاصر وهو على أبواب العقد الثاني من القرن الخامس عشر. إن التجديد الذي تحدث عنه الأثر النبوي الشريف والقائل بأن الله سبحانه وتعالى يبعث على راس كل مئة سنة من يجدد هذا الدين هو أحد مفاخر ديننا، بل هو اعظم مفاخره، ففيه إشارة إلى ذلك الالتحام الأبدي بين ديننا وبين صيرورتي الزمان والمكان، وهو سر خلود هذا الدين وبقائه ما بقي الزمن والمكان.

(10)

وليس من همي هنا أن استطرد في وصف هذا الفكر وما ينبغي أن يكون عليه، إلا أنني لا أرى ما يمنع من الإشارة إلى بعض ما نريده منه، لاسيما وانه قد ومضت منه ومضات عند البعض من مفكري الإسلام وعلمائه المُحدَثين.. فنريده كالعاصفة المنطلقة من سجنها يوقظ هاجع الأفكار في جميع الأذهان. ويعصف بقبور العقول ومدافن النفوس لتقذف بأموات أفكارها، وظلمات أرواحها بعيدا عنها ونرجوه فكرا كونيا شموليا يربط ربطا محكما بين حقائق الدنيا وحقائق الآخرة، ويصل ما بين قلب الكون وقلب الإنسان، ونتمناه حارا دافقا يهدر بالأفكار كما تهدر شلالات الطبيعة، ليس فيه برودة الأكاديمية وجفافها ولا ضبابية الإنشائية، وتهويماتها، وانما هو مزيج من فيض الروح ودفقه، ووقدة القلب وضرامه، وحرارة العقل وجلاله. إنه باختصار فكر قرآني يمنح الإنسان قدرة على فض أختام العالم، وحل لغز الوجود، وتمزيق ما تحجبت به الحياة من قمط النواميس والسنن وقوانين الأسباب والمسببات، فيأخذ بيده مخترقا مفازات هذه الحُجب ليوقفه بين يدي خالقه وبارئه، تاركا العوالم كلها وراء ظهره في عبودية خالصة مخلصة لرب العالمين.

(11)

والله سبحانه وتعالى قد دل على وجوده بجموع هائلة من الآيات الآفاقية والانفسية، إلا أن أعظم آياته، وأكثرها ظهورا، وأبهرها إعجازا بعد القرآن الكريم، إنما هو سيدنا محمد **ق**، بصفاء جوهره، وكريم

عنصره، وعظم خلقه، فهو المعنى الجليل الذي انتدبت البشرية إلى فهمه، وهو القلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم من معاني الإيمان والتوحيد، ووضع النقاط المضيئة فوق حروف الوجود لكي يمكن قراءته والتعرف على معناه ومغزاه، فما من قلم في يد مسلم إلا وهو يستمد فكره من هذا النبي الأمي عليه افضل الصلاة والسلام، ويتعلم منه ويسترشد به، لأنه مرآة القرآن الكبرى، يعكس على العالم أفكاره وآياته ومعانيه عبر حركة الزمان المتجدد، وهو بين الأنبياء والرسل عليهم السلام، اعظم مجدديهم، وأكثرهم نجاحا فيما انتدبوا له من مهام، فقد جدد ما رثَّ من تعاليمهم، وخَلُقَ من أفكارهم، وحُرِّفَ من رسالاتهم، وهو الذي أحيا عقيدة التوحيد الخالص وبعثها من رمسها، وأناط بها خلاص الجنس البشري من الشقاء الأبدي، فالإسلام – قرآنا وسنة – وإن كان قد نسخ شرائع ما قبله، إلا انه – بحد ذاته – تجديد لأصول هذه الشرائع وأساساتها التي هي محور كل دين الهي، فالتجديد إذن قد بدأ في تاريخنا بنبينا محمد **ق**، ولا ينبغي أن يتوقف في أمته إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(12)

وكل ما هو غير مطروق ولا مألوف من الأشياء والأفكار جديد يتوجس منه الجامدون خيفة، وكل مجدد غريب في قومه ووطنه، منكر بينهم لا يكادون يفقهون عنه، أو يسمعون منه، وقد عاش رسولنا الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم غريبا في قومه بمكة ثلاث عشرة سنة، لأنه جاءهم بما لم يألفوا أو يعرفوا من الدين والإيمان، ومن هنا بات المسلم رهين غربتين: غربة مكانية حسية ورثها عن جده آدم عليه السلام، وغربة

فكرية إيمانية ينـزع فيه إليها عرق روحي تمتد جذوره عميقا إلى غربة رسوله المكية الأولى. وبين طوايا هاتين الغربتين في وجدان المسلم، تتشكل بصمت قواه الروحية، وتستكمل شخصيته عناصر تفردها وتميزها، ليصبح من بعد نوعا إنسانيا متفردا قبالة الكم البشري العادي، وهو وان كان غريبا في نظر هذا الكم، ولغزا مبهما لا يعرف كيف يفسره ويفهمه، إلا أنه مع ذلك يحس بأنه يضرب بعرق في كل نفس. ويمت بصلة إلى كل قلب، وربما رأى فيه تكفيراً واعتذاراً عن تخلفه وعجزه عن التفرد والتميز. فهو غريب لكنه مستطاب الغربة، بعيد لكنه اقرب ما يكون من الأرواح الحبيسة المعذبة في سجون أجسامها، واسمع ما يكون إلى أنين الإنسان وصراخه المفجع في دياجير الضلال، وأندى ما يكون على النفوس العطشى في بلقع الهوى الرهيب. وهو بعد هذا وذاك سلّم الراسبين في قرارة الوحل والطين من الراغبين في الصعود إلى ذروة الشرف الباذخ، شرف الإيمان والإسلام، وهو حاسة الأمة السادسة التي تتلمس من خلالها دربها إلى الصراط المستقيم، وهو بُعدها الرابع الذي تنفذ من خلاله إلى أغوار روحها الموار بخوالج الإيمان الدفينة، وهو عقلها الذي يفكر لها إذا ما اعتل عقلها، وداءت نفسها، وهو صبح اليقين الذي يجلوها من غياهب الشبهات. وان تشأ مزيدا من الوصف يزدك معرفة به، فاعلم أنه الحزن الهادئ الصموت، الذي وصف الرسول الكريم عليه السلام نفسه به حين قال: (والشوق مركبي، والحزن رفيقي، وقرة عيني في الصلاة) وهو الشجن الهامس العميق والوجد اللاهف المنيف، كل ذلك في إطار من جمال الروح، وجلال الفكر، وهيبة النبل والطهر،

حتى لكأنه بصفاته هذه اثقل من أن تتحمله طينة الأرض، وأوسع من أن تحتويه دنيا الناس، واشد تماسكا وقوة من أن يجرفه زبد سيل العالم، وهو الغريب نفسه الذي وصفه من أُوتي جوامع الكَلِمْ " ﷺ " فقال في حقه وفي أمثاله مبشرا: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء)[21].

---

[21] () رواه مسلم عن أبي هريرة: الإيمان